

كتاب الهلال
سلسلة
ثقافية
شهرية
ملامح القاهرة
في ١٠٠٠ سنة
جمال الغيطاني

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: كمال النجمي

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB ALHILAL

العدد ٣٩٣ - ذو القعدة ١٤٠٣ - سبتمبر ١٩٨٣

No. 393 — September 1983

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى - ١٢ عددا - فى جمهورية مصر العربيه ثلاثة جنيهات مصرية بالبريد العادى • وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان خمسة جنيهات مصرية او مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج٠م٠ع٠ بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنانة سميحة حسنين

جمال الغيطاني



دار الهلال

مقاهى القاهرة

« .. مقاهى القاهرة ، عالم فريد ، متشابك العناصر ، يحوى الملامح الانسانية العامة ، وله أيضا سماته الخاصة جدا . فى مقاهى القاهرة يجلس الناس حول المناضد متواجهين ، يتبادلون النجوى ، والاحاديث، والاشواق الانسانية ، والمصالح المادية ، وقضاءالحاجات، وعقد الصفقات ، وثمة من تلفه الوحدة ، يجلس محملقا فى الفراغ ، وقد يحاول قهر وحدته بحديثه الى جار لا يعرفه ، وربما بدأت بينهما علاقة قوية قد تستمر عمرا ، وربما لم تعش أكثر من حدود اللقاء ... » .

الى أى عمق تاريخى ينأى عمر المقهى القاهرى ؟ لا يوجد مرجع تاريخى يحدد هذا ، ولم تخصص دراسة لرصد تضاريس هذا العالم المتكامل ، ولكن الذى لا شك فيه ان المقهى كان جزءا من الحياة القاهرية . منذ أن اتسعت القاهرة ولم تعد الحياة قاصرة فيها على الخلفاء الفاطميين وحاشيتهم ، ولا شك أن المقهى كان موجودا بشكل مختلف عما نعرفه الآن ، فالقهوة التى استمد منها المكان اسمه لم تدخل مصر الا فى القرن السادس عشر الميلادى ، قيل ان أول من اهتدى اليها هو أبو بكر بن عبد الله المعروف بالعيدروس ، كان يمر فى سياحته بشجر البن فاقتات من ثمره حين رآه متروكا مع كثرته ،

فوجد فيه تجفيفـــا للدماغ واجتلابا للسهر ، وتنشيطا للعبادة ، فاتخذه طعاما ، وشرابا ، وأرشد أتباعه اليه ، ثم وصل أبو بكر الى مصر سنة ٩٠٥ هـ ، وهكذا أدخل الصوفية شراب القهوة الى مصر ، واختلف الناس حول هذا المشروب الجديد ، هل هو حرام أم حلال .

حرم البعض القهوة لما رأوه فيها من الضرر ، وخالفهم آخرون ومنهم المتصوفة وفى سنة ١٠٣٧ هـ زار القاهرة الرحالة المغربى أبو بكر العياشى ووصف مجالس شرب القهوة فى البيوت ، وفى الاماكن المخصصة لها .

في مطلع القرن العاشر الهجرى حسمت مشكلة تحريم القهوة أو تحليلها ، وانتشرت فى القــاهرة الاماكن التى تقدمها ، وأطلق عليها اسم المقاهى ، ويبدو لنا أن هــذه الاماكن كانت موجودة من قبل ذلك بمئات السنين ، ولكن لم يطلق عليها اسم المقاهى لان القهوة نفسها لم تكن دخلت الى مصر ، كانت هذه الاماكن معدة لتناول المشروبات الاخرى كالحلبة ، والكركديه ، والقرفة ، والزنجبيل ، ولم يكن الدخان معروفا أيضا حتى القرن الحادى عشر الهجرى ، ويحدد الاسحاقى المؤرخ المعاصر ظهور الدخان فى سنة ١٠١٢ هـ ، غير أن مشكلة الدخان كانت أكثر تعقيدا ، لقد تمسك كثير من فقهاء المسلمين بتحريمه ، وكثيرا ما كان يطارد مدخنوه تماما كما يطارد مدخنو الحشيش فى أيامنــــا هذه ويذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١١٥٦ ، أن الوالى العثمـــانى أصدر أوامره بمنع تعاطى الدخان فى الشـــــوارع وعلى الدكاكين ، وأبواب البيوت ، ونزل ومعه الاغا ، ونادى بذلك ، وشدد بالانكار والنكال بمن يفعل ذلك ، وكان كلما رأى شخصا بيده

آلة الدخان يعاقبه ، وربما اطعمه الحجر الذى يوضع فيه الدخان بما فيه من نار .

القرن التاسع عشر

ربما كان أدق وصف وصل الينا عن المقاهى المصرية ، ما كتبه المستشرق الانجليزى ادوارد وليم لين ، فى كتابه « المصريون المحدثون » ، يقول « لين » الذى زار القاهرة وعاش بها فى مطلع القرن التاسع عشر « ان القاهرة بها أكثر من ألف مقهى ، والمقهى غرفة صغيرة ذات واجهة خشبية على شكل عقود ، ويقوم على طول الواجهة ، ما عدا المدخل ، مصطبة من الحجر أو الاجر تفرش بالحصر ويبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثة وعرضها كذلك تقريبا ، وفى داخل المقهى مقاعد متشـــابهة على جانبين أو ثلاثة ، ويرتاد المقاهى أفراد الطبقة السفلى والتجار وتزدحم بهم عصرا ومساءا وهم يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية ، ويحمل كل منهم شبكه الخاص وتبغه ، ويقدم « القهوجى » القهوة بخمس فضة للفنجان الواحد ، أو عشرة فضة للبكرج الصغير الذى يسع ثلاثة فناجين أو أربعة ، ويحتفظ القهوجى أيضا بعدد من آلات التدخين من نرجيلة وشيشة وجوزة ، وتستعمل هذه الاخيرة فى تدخين التمباك والحشيش الـذى يباع فى بعض المقاهى ، ويتردد الموسيقيون ، والمحدثون على بعض المقاهى ، فى الاعياد الدينية خاصة ... » .

وفى كتاب وصف مصر الذى أعدته الحملة الفرنسية جزء عن المقاهى فى زمن الحملة : « تضم مدينة القاهرة

حوالى ١٢٠٠ مقهى بخلاف مقاهى مصر القديمة وبولاق ؛ حيث تضم مصر القديمة ٥٠ مقهى أما بولاق فيبلغ تعداد مقاهيها المائة . وليست لهذه المبانى أية علاقة بالمبانى التى تحمل نفس الاسم فى فرنسا الا من حيث استهلاك البن على الرغم من ان هذا المشروب يعد ويشرب بطريقة مختلفة ، فليس فى هذه المبانى أثاثات على الاطلاق وليس ثمة مرايا أو ديكورات داخلية أو خارجية ، فقط ثمة منصات « دكة » خشبية تشكل نوعا من المقاعد الدائرية بطول جدران المبنى ، وكذلك بعض الحصر من سعف النخيل ، أو أبسطة خشنة الذوق فى المقاهى الاكثر فخامة بالاضافة الى بنك خشبى عادى بالغ البساطة .

ويبدو من وصف المقاهى هنا أنها تشبه الى حد كبير بعض المقاهى الصغيرة التى لا تزال قائمة فى قرى الصعيد الجنوبى ، لم يكن نظام الجلوس الى مناضد وفوق كراسى متبعا ، ويبدو ان هذا النظام لم ينتشر الا بعد إنشاء البارات المخصصة لتقديم الخمور ، ولكن لم ينتقل نظام الجلوس من المصطبة الى استخدام المقاعد والمناضد مباشرة انما مر بفترة كانت تستخدم فيهاالدكك الخشبية العريضة ، ولا يزال مقهى الفيشاوى القديم وبعض مقاهى القاهرة الفاطمية تحتفظ بدكك خشبية عريضة تتسع الواحدة منها لجلوس خمسة أو ستة أشخاص متجاورين ولا تزال احدى الدكك الخشبية فى مقهى الفيشاوى تحمل تاريخ صناعتها فى سنة ١٩١٠ أى فى فى بداية هذا القرن ، ويكاد المقهى القاهرى يشبه فى

ذلك الحين ، المقهى البغدادى الآن ، والذى يستخدم للجلوس فيها الدكك الخشبية ، غير أن الادوات التى كانت مستخدمة فى مقاهى القـــاهرة عند بداية القرن التاسع عشر ، لم تتغير كثيرا حتى الآن .

أدوات المقهى

فى أى مقهى قاهرى يطالعنا رف عريض فوق «النصبة» اى المكان الذى يتم فيه اعداد المشروبات ، هذا الرف يحمل عددا من النرجيلات ، وهى آلة التدخين ، وشكل النرجيلة لم يتغير كثيرا عما كان عليه منذ مائتى عام ، فى بداية القرن التاسع عشر ، كانت النرجيلة تتكون من عدة أجزاء ، أولها الجوزة الهندية (وقد حل مكانها الآن البرطمان الزجاجى) ويوضع فيهـــا الماء ، ثم القلب النحاسى الذى يحمل الحجر المصنوع من الفخار ، ويوضع فوقه الدخان ، وفوقه جمرات الفحم ، وتتصل انبوبة التدخين بقلب النرجيلة (الآن يسمى الانبوب « اللى ») ويوضع فى مقدمته فم من الكهرمان ، لقد كانت صناعة النرجيلة فى بداية القرن التاسع عشر دقيقة ، ويوجـد نماذج عديدة فى دكاكين التحف القديمة بخان الخليلى الآن ، كل منها كالتحفة الفنية ، بعضها صنع من الفضة، والنحاس ، والزجاج الثمين ، ويوجد حاليا قسم بأكمله من شارع المعز لدين الله فى القاهرة يضم عددا من المتاجر تختص بأدوات المقاهى ، ولوازمها .

وفى بداية القرن التاسع عشر كانت القهوة تقدم فى « بكرج » موضوع على جمر فى وعاء من الفضة أوالنحاس يسمى « عازقى » ويعلق هذا الوعاء فى ثلاث سلاسل ، ويقدم الخادم القهوة ممسكا أسفل الطرف بين الابهام والسبابة ، وعندما يتناول الفنجان والطـرف يستعمل كلتا يديه واضعا شماله تحت يمينه ، وتستعمل مجمرة تسمى « منقدا » من النحاس المبيض بالقصدير ، ويحرق فيها البخور أحيانا ، وكانت القهوة يضاف اليها أحيانا الحبهان ، أو المصطكا ، أما الاغنياء فكانوا يضيفون اليها العنبر ، أما الآن ، فالقهوة تقدم فى كنكة من نحاس ثم تصب فى فناجين خزفية صغيرة ، وفى معظم المقاهى تقدم القهوة مجردة ، بدون اضافة أى شىء اليها ، ولكن هناك تاجر واحد للبن فى القاهرة الآن يقوم بخلط البن بالحبهان ومواد أخرى تضفى عليها مذاقا خاصا لطيفا ، ويعتبر هذه التركيبة من الاسرار ، ودكانه يقع فى احدى حوارى الغورية بالقاهرة القديمة .

ومن أهم المشروبات فى المقاهى الآن « الشاى » ، وهو مشروب حديث ، لم يدخل مصر الا فى القرن التاسع عشر ، وأثناء الجلوس بأى مقهى قاهرى ، تصل الى الاسماع نداءات يطلقها الجرسون مناديا العـامل الذى يقف وراء المنصة ، يبلغه بطلبات الزبائن ، ولكل مشروب اسم معين ، والشاى له أكثر من اسم :

- شاى بنور : أى شاى عادى فى كوب زجاجى .
- شاى ميزة : أى شاى مخلوط باللبن .

ـ شاى بوستة : أى شاى غير مخلوط بالسكر ، انما السكر فى اناء صغير مجاور له .

ـ شاى كشرى : أى توضع أوراق الشاى الجافة فى مياه مغلية مع السكر .

أما القهوة فيكتفى للنداء بالآتى :

ـ واحد سادة : أى بدون سكر .

ـ واحد مضبوط : أى متوسط المذاق .

ـ واحد زيادة : أى السكر أكثر قليلا .

كما تسمى القرفة « فانيليا » . والنرجيلة الصغيرة « حمى » ، والنرجيلة التى تحمل كمية أكبر من الدخان الخالص « عجمى » ، أما الدخان المخلوط بالعسل « المعسل » فينادون عليه قائلين « واحد بورى » ، أو « المصرى » وبالفعل فهو شكل مصرى خالص من التدخين ، وان كان يشبه دخان « الجراك » المعروف فى الهند وبعض بلدان الجزيرة العربية ، غير أن الجراك عبارة عن فواكه عطنة مخلوطة ببعض الزيوت ، أما المعسل ، فهو دخان « تمباك » مخلوط بالعسل الاسود .

أبوزيد .. والظاهر

حتى انتشار المذياع فى مصر ، كانت المقاهى اماكن مخصصة لرواية قصص السيرة الشعبية والملاحم ، وكان أصحاب المقاهى يستقدمون رواة القصص ، وبعضهم يعرف باسم « الهلالية » لتخصصهم فى سيرة أبوزيد الهلالى ، والبعض الآخر يعرف باسم « الظاهرية » نسبة

الى الظاهر بيبرس ، وقد ظهرت قصة الظاهر بيبرس فى القرن السادس عشر الميلادى ، وهى قصة طويلة تمتاز بخيال خصب ، ووقائع طريفة ، فضلا عن انها تصور حياة المجتمع المصرى بدقة ، وظهرت قصص أخرى هى سيرة الاميرة ذات الهمة ، و « الدرة الملكة فى فتح مكة المبجلة » ، و « غزوة الامام على مع اللعين الهضام ابن الحجاف » ، و «فتوح اليمن المعروفة برأس الغول».

ونلاحظ ان قصة الظاهر بيبرس قد انتشرت وذاعت بعد الغزو العثمانى لمصر عام ١٥١٧ ، ويبدو انها كانت كرد فعل على الهزيمة ، والجراح التى لحقت بالناس ، ونفس الظاهرة نلاحظها بالنسبة للحمة «أبوزيد الهلالى» التى انتشرت بعد هزيمة الثورة العرابية ، والاحتلال الانجليزى لمصر ، انه رد فعل الشعب تجاه حدث أليم ، وشكل لحماية الذات بواسطة الفن .

كانت هناك قصص أخرى تروى بالمقاهى ، مثل قصة سيف ابن ذى يزن ، وألف ليلة وليلة ، وسيرة عنترة العبسى ، وكان المنشدون يتخذون آلات الطرب كالربابة والعود ، وقد قضى الراديو على هذه الطائفة قضاءا مبرما .

يمكن القول ان العصر الذهبى لمقاهى القاهرة كان فى النصف الاول من هذا القرن ، خاصة فى العشرينات ، والثلاثينات ، وكانت القاهرة الجميلة ، الهادئة وقتئذ ، تزخر بالعديد من المقاهى ، منها مقهى نوبار والذى توجد مكانه الآن مقهى المالية ، وكان مجمعا للفنانين ، وكان عبده الحامولى يقضى أمسياته فيه ، ومعه بعض

أصحابه ، ومنهم باسيلى بك عريان الذى أفلس بعد ان انفق نصف مليون من الجنيهات ، وأحيانا كان يضيق بزبائن المقهى فيطلب من صاحبه أن يخليه من الزبائن له ولاصدقائه فقط ، على أن يعوضه الخسارة .

وفى ميدان الأوبرا ، كان يوجد مقهى السنترال : وموضعه الآن جزء من ملهى صفية حلمى فى ميدان الاوبرا ، وهذا الملهى يضم أيضا مقهى من طابقين حتى الآن ، ويعرف باسم كازينوا الاوبرا ، وكانت تعقد به ندوات أدبية لنجيب محفوظ كل يوم جمعة ، وعندما التقيت به لاول مرة كان ذلك فى ندوة الاوبرا الشهيرة هذه .

أما مقهى متاتيا فمكانه فى ميدان العتبة الخضراء ، وكان يؤمه جمال الدين الافغانى ، والامام محمد عبده ، وسعد زغلول ، وابراهيم الهلباوى المحامى المشهور ، ثم ارتاده عباس العقاد ، وابراهيم المازنى ، والشيخ فهيم قنديل صاحب جريدة عكاظ التى كانت تصدر فى القاهرة ، وفى ركن المقهى مطعم صغير للفول والطعمية كان رواد المقهى يجدون فيه حاجتهم من الطعام .

وعلى مقربة من الموسكى ، قهوة القزاز ، ومكانها الآن بعض المبانى القائمة عند الجانب الايمن من الشارع بالقرب من العتبة ، وعامة زبائنها من أهل الريف ، الذين يجلسون فيها ويتأملون النساء القاهريات المحجبات بالبراقع البيضاء والسوداء ، أثناء اتجاههن لشراء حوائجهن من أكبر شوارع القاهرة التجارية فى ذلك الوقت ، شارع الموسكى ، وبالقرب من مقهى القزاز كان يوجد محل حلوانى اسمه اللبان ، وكان زبائنه من

العسكريين القدامى ، والعجائز المتصابين ، بعضهم حارب مع عرابى ، وبعضهم شهد حرب الحبشة ، ومنهم من حضر فتح السودان ، كانوا يجلسون يتابعون المارة ، ويتبادلون الذكريات المستمدة من سنوات عمرهم البعيدة .

وفى شارع محمد على يوجد مقهى « التجارة » ، وهو من أقدم مقاهى القاهرة ، ويزيد عمره الآن عن مائة وعشرين سنة ، ولا زال قائما حتى اليوم ، ومعظم رواده من الموسيقيين العاملين فى الفرق التى تتخذ من شارع محمد على مقرا لها ، هذه الفرق التى يطلق عليها ، فرق حسب الله ، وحسب الله هذا كان أحد الموسيقيين بجوقة الخديو اسماعيل ، وعندما خرج من الخدمة شكل أول فرقة للموسيقى تتقدم الجنازات والافراح .

وفى نهاية شارع محمد على ، أمام دار الكتب ، مقهى الكتبخانة ، وكان من روادها حافظ ابراهيم ، والشاعر عبد المطلب ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، وكان من رواد هذا المقهى أيضا الشيخ حسن الآلاتى ، وكان الشيخ يرتاد مقهى آخر بحى السيدة زينب ويطلق عليه اسم المضحكخانة ، ويشترط لدخول مجلسه وضع رسالة فى التنكيت والقفش ، حتى اذا حازت عنده قبولا ضم مقدمها الى مجلس النادى ، وقد جمع الشيخ حسن الآلاتى كثيرا من نوادر المضحكخانة فى كتاب طبع فى نهاية القرن الماضى ، ويحمل نفس الاسم المضحكخانة .

وخلف دار الكتب كان يوجد مقهى بلدى صاحبه رجل عرف بهوايته لمصارعة الديوك ، وكان من رواده بعض الاثرياء الذين يشاهدون ما يقدمه من عروض ، وفى شارع الصليبة القريب كان يوجد مقهى الاتراك ، ومعظم

زبائنه من الباشبوزق الذين كانوا يؤجرون أنفسهم من بيت محمد على للحرب ، وفى شارع محمد على أيضـا مقهى عكاشة ، وهذا المقهى أنشىء فى الاربعينات ، بناه اولاد عكاشة أصحاب الفرق المسرحية المشهورة ، وكان مقهى مزودا بأجهزة استماع للموسيقى ، يجلس الزبون الى المنضدة ، ويضع السـماعات الى أذنيه . ويطلب سماع اى اسطونة يرغبها ، لقد أدرك الزمان هذا المقهى بخطواته الثقيلة ، فأصبح مجرد مقهى عادى به آثار من العز القديم ..

وفى حى الحسين ، مقهى الفيشاوى الشهير ، وعمره الآن يتجاوز المائة عام ، وكان يتكون من واجهة انيقة ودهليز طويل حوله مقاصير صغيرة صفت فيهـا موائد رخامية ، ودكك خشبية ، وكانت شهيرة بالشاى الاخضر والاحمر الذى يقدم فى أكواب زجاجية صغيرة ، وفى شهر رمضان يكثر رواده من الفنـانين والـكتاب والناس العاديين وفى أيام الشهور العادية ، كان للمقهى سحره الخاص ، وداخله يخيم هدوء يمت الى الازمان البعيدة الجميلة تؤطره هـذه التحف العربية المتناثرة فى المكان ، وأمامه يجلس الحـاج فهمى الفيشاوى يدخن باستمرار النرجيلة التى لا تنتهى ابدا ، وعلى بعد خطوات منه جصانه العربى الاصيل ، وفوقه اقفاص الحمام الذى كان مغرما بتربيته ، لقد صدر قرار بهدم هذا المقهى بعد عام ١٩٦٧ ، ولم يستطع الحاج فهمى أن يواصل الحياة حتى يرى نهاية مقهاه ، فمات قبل أن يرتفع أول معول للهدم بأيام قليلة . ولحقه على الفور الحمام الذى كان يربيه . كان من أشهر رواد المقهى الاديب العربى نجيب

محفوظ ، الذى كان يخلو الى جوه الهـــادىء المعبق بالتاريخ يوميا أثناء عمله بمكتبة الفورى القريبة عنـدما كان يعمـل فى وزارة الاوقاف ، من الشـخصيات التى ارتبطت بالمقهى أيضـا عم ابراهيم كان رجلا قصيرا ، ضريرا ، يتاجر فى الكتب ، وكان سريع النكتة ، فى ليالى الثلاثينات يجلس الى عدد كبير من الرواد ، ويبادلهم هذا الشكل الفكاهى من الحوار ، والمعروف فى مصر ، باسم «القافية» وكان يرد عليهم كلهم ويهزمهم ، لقد عرف مقهى الفيشاوى العديد من الشخصيات ، بعضها باق فى ذاكرة التـاريخ ، والـكثير منهـا رحل الى دروب الصمت .

على مقربة من الفيشـاوى كان هنـاك مقهى قديم وغريب ، يقع تحت الارض ، واسمه مقهى سى عبده ، وكان دائرى الشكل ، يضم عـدة مقصورات ، تتوسطها نافورة مياه ، وقد وصف نجيب محفوظ هذا المقهى فى روايته العظيمة ، الثـلاثية ، حيث كان يلتقى كمـال عبد الجواد بصديقه فؤاد الحمزاوى ، لقد اندثر هـذا المقهى تماما ، ومكانه الآن بعض المبانى الحديثة .

ومن المقاهى الشهيرة فى القاهرة القديمة والباقية حتى الآن ، مقهى عرابى الذى يقع بميدان الجيش ، عند نهـاية الحسينية ، وعرابى صاحبه كان أحد الفتـوات المشهورين فى أوائل هذا القرن ، وقد بلغ من سطوته ان مأمور قسم الظاهر لجأ اليه يوما يطلب حمايته لان احد الاجانب هدده ، وكان الاجانب يحاكمون امام محكمة خاصـة فى ذلك الوقت ، ومن رواد مقهى عرابى نجيب محفوظ ، حيث يلتقى بأصـدقائه القدامى ، وزملاء

طفولته ، وفى هذه الجلسة التى تتم كل يوم خميس تلعلع ضحكات الاديب الـكبير ، ويبدو مرحا ، سريع النكتة ، ولا يطرق هذه الجلسة من الشـــبان الا عدد محدود جدا عرف طريق المقهى الذى يستعيد فيه أديبنا الكبير ذكرياته وقصص شبابه مع رفاق الزمن القديم ، غير انه انقطع عن الانتظام فى حضور هذه الندوة الاسبوعية منذ عامين ، والسبب ، أزمة المواصلات فى القاهرة ، التى تعوق أديبنا الكبير عن الوصول من بيته فى العجوزة الى ميدان الجيش .

وفى مواجهة مسرح رمسيس « مسرح الريحـانى » كانت تقع قهوة الفن ، وفيهـــا البؤساء من الفنـــانين ، والكومبارس ، والنساء الضاحكات ، كانت هناك مارى منصور ، وزينب صدقى ، ودولت أبيض ، وأمينة رزق، وعزيز عيد ، وفاطمة رشدى ، وأحمد علام نقيب الممثلين.

أما مقهى « ريش » الذى لا زال موجودا حتى الآن ، فكان من أشهر مقاهى القاهرة .

وحتى أربعينات هذا القرن يوجد عدد كبير من المقاهى فى روض الفرج ، مقاهى جدرانها من الخشب ، محاذية للنيل ، وفى كل منها عدد من فنانى شارع محمد على ، يعرضون فيها الفناء والمونولوج ، ومنهم حسين المليجى ، ونعمات المليجى ، ولهلوبة ، وزينب فلفل ، وغيرهم ..

ويوجد فى شارع محمد على مقهى للمنجدين ، وفى باب الشعرية مقهى لا يرتاده الا عمال الافران البلدية ، وبجوار سينما كايرو فى القـاهرة مقهى يؤمه الخرس فقط الذين فقدوا نعمة النطق ، وأشهر مقاهى النرجيلة فى القاهرة الآن ثلاثة : الندوة الثقافية بباب اللوق ،

وأخرى تحمل نفس الأسم بمصر الجديدة ، ومقهى ثالث بشارع أحمد سعيد بالعباسية .

واذا ما رحلنا الى الخمسينات سنجد مقهى انديانا في الدقي ، وكان مقرا لندوة أدبية يومية محررها الناقد الراحل أنور المعداوى ، وكان من رواد هذه الندوة رجاء النقاش ، وسليمان فياض ، ومحمد أبو المعاطى أبو النجا .

والآن انحسرت الندوات الادبية التى كانت تعقد في المقاهى ، لم يكن متبقيا منها الا ندوة نجيب محفوظ مع شباب الادباء في مقهى ريش ، كل يوم جمعة ، وحتى هذهالندوة توقفت منذ أن قرر صاحب المقهى اغلاقه يوم الجمعة من كل أسبوع .

بالقرب من قهوة ريش ، مقهى آخر يلتقى فيه عدد كبير من المثقفين والادباء والصحفيين ولكن بشكل غير منتظم ، وهو مقهى « الندوة الثقافية » ، وهو مشهور بالنرجيلة ، ويوليها اهتماما خاصا ، في نفس الوقت الذى لا تعنى فيه المقاهى الاخرى بهذا النوع من التدخين .

وحدة انسانية

لقد ولى العصر الذهبى للمقهى ، ولكن هذا لا يعنى تقلصها ، أو انحسارها ، صحيح ان المقاهى التى تفتح حديثا نادرة للغاية ، كما أن محلات تقديم المشروبات ووجبات الطعام السريعة تنتشر الآن ، ولكن لا تزال اكثر من خمسة آلاف مقهى في القاهرة تعج بالزبائن والرواد ، كل مقهى منها يمثل وحدة سياسية ،

واقتصادية ، وأجتماعية ، وانسانية ؛ فيه تصب كل العناصر التى يتشكل منها المجتمع ، الرأى العام للناس يتشكل فى المقهى ، وخلال الفترات التى ينتخب فيها اعضاء البرلمان يكون المقهى هو المكان الذى تنطلق منه وتتركز فيه الدعاية ، ويطوف المرشح بمقاهى المنطقة ؛ يجلس الى الرواد ويتحدث اليهم ويتودد اليهم ، وقد يدعو كل الجالسين لشرب الشاى أو القهوة .

ويرتبط المصريون بالمقهى ارتباطا كبيرا ، ولكل منهم مقهاه المفضل الذى يقع عادة بالقرب من سكنه أو مقر عمله ، قال لى أحد العاملين بهيئة الامم المتحدة انه عندما ذهب الى نيويورك فى أواخر الخمسينات شعر بفراغ غريب ، ثم أدرك بعد حين ان السبب افتقاده للمقهى ، والجلوس به ، وطاف بنيويورك حتى عثر على مقهى يونانى فيه طابع مقاهى حوض البحر المتوسط الذى يقترب الى حد ما من المقهى العربى فى مصر ، ولدهشته فوجىء بوجود عدد من المصريين يرتادون المقهى ، وكان عدد المصريين فى نيويورك كلها وقتئذ لا يتجاوز الثلاثين ، وفوجىء انهم اتخذوا مقرين للجلوس ، المقر الاول مقهى ذلك اليونانى ويرتاده الصعايدة ، والمقهى الثانى قريب ويرتاده أبناء الوجه البحرى .

فى المقاهى يتخذ البعض مقرا ثابتا لاعمالهم التجارية ، مثل السماسرة ، والمقاولين ، كما يطوف بها الباعة الجائلين يحملون بضاعتهم التى تتشكل من أقلام الحبر والنظارات ، والمحافظ الجلدية ، وسلاسل المفاتيح المعدنية ، وعندما يدرك التعب أحد هؤلاء الباعة يأوى

الى مقعد ملتمسا بعض الراحة ، وفوق ملامحه يبدو الشقاء والكد .

يرى البعض ان المقاهى أماكن يتبدد فيها الوقت ، وتعطل الانتاج ، ولكننى اذ أركن الى أحد مقاهى القاهرة القديمة ، أحاول تلمس معالم هذا الزمن الرائق الحلو الذى نفتقده الآن فى الضجيج والزحام ، وايقاع الحياة السريع اللاهث ، ان المقهى نموذج مصغر لعالمنا يضج بكل ما تحتويه دنيانا .. » .

النرجيلة

« .. عرفت النرجيلة منذ خمسة عشر عاما ، عرفتها كصديق صامت ، يأنس اليه الفؤاد عندما ينوء تحت وطأة الاحزان والاكدار ، صديق يساعد العقل على التركيز ، واقتناص شوارد الفكر من هنا وهناك ، بدون أن يفرض مطالب خاصة ، أو ازعاجات ، أو يمر بمراحل التقلب من حب وكره وبغض ، اذا ما تضاعفت الوحدة تبعث قرقرة المياه ونسة ، وتوحى الجمرات المتوهجة بحدود عالم سحرى ، مبهم ، عرفت النرجيلة فى آخر زمانها ، فلا شك انها تذوى ، ويدهسها ايقاع العصر السريع ، وفى كل بلد ذهبت اليه كنت أبحث عن النرجيلة ، عرفتها فى مقهى هافانا بدمشق ، وفوق جبل قاسيون ، أرقب الافق الاخضر البعيد من خلال صحبتها ، نرجيلة دمشقية أنيقة بزخارفها ، ودقة صناعتها ، أما النرجيلة البغدادية فى مقهى الاورفلى بشارع السعدون فهى غنية بالتمباك ، خشنة المظهر ، يشرف على تقديمها رجل عجوز ، يحيط خصره بفوطة حمراء . صامت دائما وكأنه يؤدي طقوس خاصة لا يجوز الاطلاع على مكنونها . أما النرجيلة القاهرية فهى انسانية فى مجتمعها ، لها مجتمع خاص يتجمع حوله الاصحاب ،

أصحاب من نوع خاص يجمعهم هواية تدخين النرجيلة، وبعـد أن كانت تقدم فى أماكن خاصـة ، وفى أزهى الاشكال انزوت الآن فى مقاهى قليلة ، أما النرجيلة التركية فقد كادت تختفى ، ولا تقدم الا فى عـدد قليل من المقاهى ، خشنة المظهر ، ذلت بعد عز كبقايا الامبراطورية العثمانية ، يقبل عليها شباب الهيبز الاوربيين وكأنهـا اعجوبة ، ينفثون دخانها ويحملقون الى مياه القرن الذهبى من موقع ذلك المقهى تحت كوبرى جلطة .

قد تختلف النرجيلة من هنا الى هناك ، ولكنها بشكل عام آخذة فى الاضمحلال ، والزوال . مع زحف ايقاع العصر السريع ، على روح الشرق التأملية ولن يمضى زمن طويل حتى يولى عصر النرجيلة تماما ..

التبغ

كانت البداية من أمريكا ، عندما رأى البحـارة الاوربيون هنود القارة الجديدة يدخنون هذه المـادة التى تبعث دوارا خفيفا ، التبغ ، ومنها انتقل الى أوروبا ، ثم الى الشرق ، وظهر الدخان فى مصر سنة ١٠١٢ هـ، واثار ظهوره خلافات حادة بين علماء المسلمين ، وتمسك معظمهم بتحـريمه ، ولا زال الوهابيون يحرمونه حتى الآن ، وكانت الاوامر تصدر بمنعه أحيانا ، فى حوادث سنة ١١٥٦ هـ ، يذكر الجبرتى ان الوالى العثمانى اصدر أمرا بمنع التدخين ، ونزل معه الاغا ، وتابع بنفسه المنع ، حتى انه كان يعاقب المدخن باطعامه الحجر الذى

يوضع فيه الدخان بما فيه من النار ، لكن المتصوفة تعصبوا للدخان ، كما تعصبوا للقهوة والشيشة من قبل ، ونظم أبو الذهب البكرى قصيدة فى الدخان :

هات اسقنى التبغ ان نبع الصفا سحرا
حتى أضرر منه وهو اغشاء

واستجل أنوار شمع من
قد زانه قامة بالحسن هيفاء

لعل ناراسى بالبعد قد وقدت
يوما يكون لها بالقرب اطفاء

ولم تكن لفائف التبغ معروفة وقتئذ ، انما كان التدخين يتم بواسطة الشبك ، أو النرجيلة ، وكان المدخنون يحملون الشبك اما بين ايديهم ، أو مع الخادم خلفهم اذا كانوا أثرياء ، ويبلغ طول قصبة التدخين ــ كما يصفها ادوارد لين ــ اربعة أقدام أو خمسة ، ويغطى بالحرير الذى تحد طرفيه سلوك ذهبية محبوكة بالحرير الملون ، او تحدهما ماسورتان من الفضة المذهبة . ويتدلى من الغطاء الحريرى فى الحد الاسفل شرابة حريرية ، وكان هذا الغطاء يبلل بادىء الامر بالماء فيبرد بالتبخر الشبك وبالتالى الدخان ، أما الحجر الذى يوضع فيه التبغ فهو من الآجر ولا زال يصنع من نفس المادة حتى يومنا هذا ، وكان يوضع تحت الحجر صينية نحاسية صغيرة لصيانة السجاد أو الحصير من النار ، أما « الفم » فيتكون من قطعتين أو اكثر من الكهرمان الفاتح اللون ، يصل ما بينهما زخارف من الذهب المرصع بالمينا والحجر اليمانى واليشب والعقيق ، وخلاف ذلك من الاحجار الكريمة ، والفم أثمن جزء فى

الشبك وقد يرصع بالمـاس . وكان الشبك يحتاج الى تنظيف متواصل ، شأنه فى ذلك شأن البايب الآن ، لهذا كان كثير من الفقراء يعيشون على تنظيف الشبك ، ويبدو ان العائلات المسماة بالشبكشى كانت أصلا تتاجر فى الشبك ، أو تقوم بتصنيعه ، وهناك سمة مشتركة بين الشبك والنرجيلة وهى طول قصبة التدخين وبعد الحجر عن المدخن ، ويبدو ان ذلك ناتج عن الطبيعة الحارة للبلاد الشرقية ، بعكس البايب الغربى ، الذى يحيطه المدخن بيديه فيسرى اليهما الدفء من الحـرارة المنبعثة فى الخشب ، لقد انقرض الشبك الآن تماما ، وأصبح معلقا فى المتاحف على الجدران ، أو فى مراكز بيع الانتاج الفولكلورى القديم ، خاصة فى بغـداد ، حيث يضـم المركز الفولكلورى أنواعا متعددة من الشبك ، ولا شك ان النرجيلة ماضية فى الطريق نفسه ، فبعض النرجيلات الثمينة ، المصنوعة من الزجاج الملون ، والمرسوم عليهـا صور بعض سـلاطين الاتراك أو الحكام العثمانيين . أو بعض المناظر الطبيعية ، أما نراها الآن فى المتاحف ، أو معروضة فى بيوت الاثرياء .

النرجيلة مشتقة من لفظ « النارجيل » الاسم الذى يطلق على ثمر جوز الهند ، يمكن القـول أن ترجمته الحرفية تعنى « الجوزة » وهو الاسم الذى تعرف به النرجيلة الشعبية فى مصر ، لانها كانت مكونة فعلا من ثمرة جوز هند مفرغة ، وتثقب مرتين ، ثقب يوضع فوقه الحجر ، وثقب تنفذ من خلاله أنبوبة خشبية يتم من خلالها استنشاق الدخان الذى يمر خلال الماء الموضوع

فى الجوزة نفسها ، وصف الرحالة والعالم الدانمركى كارستين نيبور «الجوزة» المصرية ، التى لم تتغير ملامحها حتى أوائل هذا القرن، وعندما ارتفعت أسعار ثمار الجوز فاستبدل به كوز صفيح فارغ ، أو زجاجى ، وهذا أبسط الاشكال الشعبية للنرجيلة ، .ويدخن بواسطته المعسل ، وهو الدخان الممزوج بالعسل ، ويعرف فى المقاهى المصرية باسم « البورى » أو « المصرى » ، يقـــول كارستين نيبور ان العامة يدخنون الجوزة للتدفئة أيضا ، ولكن النرجيلة الانيقة التى تستبدل فيهـــا الجوزة ببرطمان زجاجى فان كارستين نيبور يطلق عليهـــا « النرجيلة الفارسية » ، ويقول ان أثرياء فارس يتخـــذون هذه النرجيلة وكثيرا ما تكون كلها مصنوعة من الفضة ، أو النحاس ، وتوجد فى خان الخليلى الآن نرجيـلات من النحاس المنقوش ، يمكن أن يدخن منها عدة أشخاص فى وقت واحد ، عن طريق عدة ليات تخرج منها ، ومثل هذه النرجيلات تستخدم فى بعض بلدان الجـــزيرة العربية خاصة اليمن والسعودية ، ويقول نيبور ان شيراز كانت مشهورة بصناعة النرجيلات الزجاجية الانيقـة ، وأحيانا كانت توضع فيها زهور مختلفة الالوان مثبتة من الداخل ، والنرجيلات الفارسية كانت منتشرة فى الهند أيضا حتى القرن الماضى ، غير ان ادوارد لين يقدم الينا وصفا أدق للنرجيلة فى مصر .

الشيشة كلمة فارسية تعنى زجاج ، وهو الاسم الذى تعرف به النرجيلة الآن فى مصر ، وهذا الاسم نتيجـة

للوعاء الزجاجى الذى يملأ بالمـاء الى قـدر معين ليمر الدخان من خلاله ، ويقول ادوارد لين ان التدخين يتم من خلال أنبوبة طويلة لينة « تسمى لى » . ويغسل التمباك عدة مرات بالمـاء ، ثم يقطع ويوضع فى حجر الشبك وهو رطب ، ويوضع عليـه جمرتان أو ثلاثة ، ويقول لين ان للتمباك عطر لطيف مقبول ، لكن شـدة استنشاق الدخان فى هذا النوع من التدخين يضر الرئة الضعيفة ، ان الوصف الذى كتبه ادوارد لين منـذ حوالى مائة وخمسين عاما لم يتغير كثيرا حتى الآن ، ولكن الذى تغير هو شكل النرجيلة ، ونوعية الدخان ، حتى الخمسينات كانت هناك أنواع متعددة من التمباك ، عجمى ، ولاذقانى (نسـبة الى اللاذقيـة) وأزميرلى ، وهندى ، ويمنى ، وعدنى ، ولكن الآن تنقسم الشيشة فى مصر الى نوعين رئيسيين ، عجمى وهو نوع خاص من الدخان مصدره ايران أو تركيا ، ويوضع بكمية أكبر فوق الحجر ويلف بورقة تمباك صحيحة لم تقطع بعد أن تبل بالماء . وتشبه الشيشة العجمى مثيلاتها فى دمشق وبغداد واستامبول ، لكن نوعية التمباك الذى يصل الى مقاهى القاهرة أردأ ، ولهذا فان النرجيلة العجمى يعتبر دخانها قاسيا ويحتاج الى صدر قوى لتحمله ، اما النوع الثانى فهو الشيشة « الحمى » ، وكمية الدخان فى الحجر هنا اقل ، ونوعية الدخان أهدأ ، وهذا هو النوع الاكثر انتشارا الآن .

وأشهر مقهى فى القاهرة لتدخين النرجيلة الآن مقهى

الندوة الثقافية في ميدان باب اللوق ، وكان صاحبه محمد حسنين يمتلك مقهى بناه في سنة ١٩٢٠ بشارع منصور بالقرب من مكان الغرفة التجارية الآن ، ثم هدم المقهى عام ١٩٥٩ ، وانتقل أبناؤه رشاد وجلال وعلى الى هذا المقهى القائم حتى الآن ، والذى يؤمه عدد كبير من الكتاب والفنانين من هواة تدخين النرجيلة ، لكن حتى منتصف القرن كانت هناك أماكن متعـــددة ، مشهورة لتدخين النرجيلة أهمها مقهى الاوبرا ، أو كما كان يعرف فى الثلاثينات والاربعينات باسم كازينو بديعـــة نسبة لصاحبته بديعة مصابنى ، كانت تقـدم فيه النرجيلات الزبائن ، كل زبون له « لى » خاص به مكتوب فـوقه اسمه ، لا يدخن به شخص آخر ، وكان الحجر يقدم محفوفا بالزهور ، وفى الماء توضع ثمرات من الكرز ، وكان يجلس بالمقهى عدد من كبـــار رجال السياسة ، والاقتصاد ، والادباء ، وأهمهم نجيب محفـوظ المدخن العريق للنرجيلة ، وكان منظرا مألوفا ان ترى السيدات المحجبات يجلسن بهـــذا المقهى ينفثن دخان النرجيلات بوقار ، بينما تمر بديعة مصابنى بنفسها تتأكد من وفرة الجمر ، واراحة الزبائن ، كانت هناك مقـــاهى آخرى مشهورة بالنرجيلة ، مثل مقهى عرابى فى ميدان الجيش، ومقهى الفيشاوى فى الحسين ، والذى كان يجلس أمامه المرحوم فهمى الفيشـــــاوى لا يفارق الفم فمه ليـــلا ولا نهارا ، كان ذلك بعد أن فارق الشباب وهجر الفتونة والشقاوة ، وكان هناك مقهى نوبار الذى كان يغنى فيه

عبده الحامولى وبرتاده خليل مطران ، وسليم سركيس الصحفى ، ومقهى الكتبخانة أمام دار الكتب ، وكان يقدم الشيشة لحافظ ابراهيم الشاعر ، والشيخ عبد العزيز البشرى ، وغيرهما ، وكان هنـــاك مقهى الشيشة فى شارع الجمهورية ، ومكانه الآن دكان للتجارة ، وكان يجتمع فيه هواة التدخين ، وهواة المصارعة بالكلاب ، أما مدينة الاسكندرية فتزدحم حتى الآن بعدد من المقاهى المشهورة بتقديم النرجيلة ، مثل مقهى التجارة ، ومقهى جابر بالمنشية ، ومقهى فاروق بحى بحرى ، ومقهى وادى النيل بالرمل .

وتصنع النرجيلات فى منطقة القاهرة القديمة ، وتوجد عدة متاجر متجاورة بشارع بين القصرين تبيع النرجيلات ، وأدوات التدخين ، من حجارة وليات ، وغيرهما ، ويبلغ ثمن النرجيلة المصنوع قلبها من النحاس وهو الجزء الذى يصل بين البرطمان الزجاجى والحجر ، حوالى خمسة عشر جنيها ، أما النرجيلة المصنوعة من النحاس الخالص المنقوش والتى تباع فى متاجر التحف بخان الخليلى ، فيبلغ ثمنها عدة مئات من الجنيهـــات ، وأذكر قسما خاصا بالنرجيلات يحتل أحـــد فروع ســـوق الحميدية بدمشق بالقرب من المسجد الاموى .

وفى الثلاثينات كان متوسط سعر النرجيلة من التبغ عشرة مليمات فى مقاهى القاهرة ، وفى الاربعينات كان ثلاثة قروش أى ثلاثين مليما ، وخضع سعر النرجيلة للتطور ككل شيء الآن فى القاهرة يبلغ سعر النرجيلة الحمى عشرة قروش ، والعجمى تصل الى أربعين قرشا ،

أما الكيلو من التبغ الخـاص بالنرجيلة فثمنـه ثلاثين جنيها ، وكان فى أوائل الخمسينات بثلاثة جنيهـات ، فى دمشق تستطيع أن تدفع نصف ليرة سورية مقـابل تدخين نرجيلة فاخرة ، كذلك فى بيروت ، فى بغـداد ثلاثين فلسا ، وفى استامبول يبلغ قيمة النرجيلة لحجر واحد ما يوازى نصف جنيه مصرى .

على أية حال ، فالنرجيلة ماضية فى طريق الانقراض ، ولن تمر سنوات طويلة قبل أن توضع فى المتاحف ، واننى لأرثى لهؤلاء الذين سـيأتون فى الازمان المقبلة ، فلن يجدوا صديقا صـامتا ، مستجيبا يلجأون اليه اذا ما ازداد الكرب ، واعتم الواقع ، وأدلهمت الظروف ، وبدت الايام رمادية مثقلة بكل باعث للضيق ، والكتمة ، نحن نلجـأ الى النرجيلة ، ولـكن هم .. الى من سيلجأون ؟؟

العمامة المملوكية

« .. للعمامة مكانة فى التـــاريخ ، بل مكانة هامة جدا ، ويبدو ذلك واضحا فى العصر المملوكى ، فحجم العمامة ، ولونها ، وطريقـــة تفصيلها توضح المكانة ، والفئة ، والطبقة ، والمهنة ، والدين ، ولا عجب ، الا تحتل أعلى جزء فى جسم الانسـان ؟ ، الرأس ، وما يلحق ذلك من مهابة ، ومكانة ، وطلعة ، وللعمامة تاريخ أبعد بكثير من العصر المملوكى ، كان سعيد ابن العاص بن امية يتميز بين العرب القدامى بجمال عمامته ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعتم بعمامة كانت معروفة باسم السحاب ، وقد أورثها ، أو تنازل عنها لعلى ، ولعل ابن جبر فى كلامه عن « عمامة شرب رقيق سحابى اللون قد علا كعبتها على رأسه كأنها ســـحابة مركومة وهى مصفحة بالذهب » . قد أشار الى هذه العمامة البيضاء للرسـول ، وذلك أثناء حديثه عن أمير مكة .

يقول رينهارت دوزى فى « المعجم المفصل بأســـماء الملابس عند العرب » ان لهذه الكلمة مدلولان ، الاول يشير الى العمامة بقضها وقضيضها ، اى الكلوتة وقطعة القماش المحيطة بها ، أما المدلول الثانى فيعالج قطعـة

القماش وحدها ، وهى التى تلف عدة لفات حول الطاقية « الكلوتة » غير اننا هنا سنعالج العمامة فى منظـــرها الكلى ، وفى عصر محدد هو العصر المملوكى أزهى عصور العمامة ، خاصة فى فترات ازدهاره ، اذ نلاحظ انه فى فترات الرواج الاقتصادى كان ذلك ينعكس على العمامة من حيث المضمون والشكل ، الدندشة والابهــة ؛ وفى فترات القحط يتضاءل الحجم ، وتقل نوعية القماش ، ولان العمامة المملوكية مقسمة الى أقســام ؛ فلابد من معالجتهـــا كذلك ، اذن ، من أين البداية ؟ من اعلى المناصب ، من عمامة السلطان نفسه . .

العمامة السلطانية

لا نستطيع أن نتخيل سلطانا مملوكيا بدون عمامة ؛ انهم يطلون علينا جميعا من أيام التاريخ البعيدة وفوق رءوسهم عمائم متنوعة الاشكال والالوان ، لكن المهم ، اننا دائما فى مواجهة عمامة سلطانية فخمة ، صغرت أو كبرت ، ان العمامة باختصار هى شعار السلطنة الرسمى ، وأول شىء يرتديه السلطان عند تنصيبه ، عمامة سوداء ، واللون هنا هو شعار الولاء للخلافة العباسية ، وعنــدما أرسل الخليفة العباسى ملابس التتويج الى الظاهر بيبرس كان أهم قطعة فيها هى العمــــامة السوداء المنسوجة بخيوط الذهب ، ونلاحظ ان السلطان كان يرتدى فى حفـــلات التتويج زى رجل دين ، وكان رجال الدين يرتدون أضخم العمائم حجما ولذلك حديث لاحق ، وعندما يخرج السلطان فى موكب كان يرتدى عمامة صغيرة ،

اسمها « تخفيفة » ، ويهتم ابن أياس بوصف هـذه التخفيفة التى اشتق اسمها من فعل « خف » ، وكانت التخفيفة من الملابس الخاصة بالسـلطان ، أو الامراء وحدث أن قاضيا أرغم على حضور حفل ساهر عند احد الامراء ، ويذكر المؤرخون انه تجرد من ملابسه ، وهـذا التجرد يعنى انه خلع عمامته الكبيرة ، وارتدى تخفيفة، عمـامة صغيرة لا تليق بمكانته كرجل دين ، غير ان التخفيفة السلطانية كانت تنقسم الى قسمين ، تخفيفة صغرى ، وتخفيفة كبيرة كان السـلطان يرتديها فى المناسبات فقط ، أطلق عليها الناس اسم « الناعورة » ، ومن أوصاف ابن اياس لها نلاحظ تطابقها مع شـكل الساقية السورية المعروف بهذا الاسم ، حيث نجـدها مسننة كترس الآلة ، وعندما يلبس السلطان التخفيفة الكبيرة فانها مناسبة كبرى ، يفرد لها ابن اياس سطورا عديدة ، يقول صاحب بدائع الزهور . .

« وفى يوم الاثنين رابعه طلعت الامراء الى القلعة على العادة . فخرج لهم السلطان من الدهيشة وهو ماشى على أقدامه وقد لبس التخفيفة الكبيرة المسماة بالناعورة، وهى الآن فى مقام التاج لملوك مصر من حين تولوا بهـا الاتراك ، وكانت التيجـان يلبسونها ملوك الفرس من الاكاسرة ، فصارت التخفيفة الـكبيرة التى بالقرون الطوال لسلاطين مصر هى التاج لهم ، كما كان التاج لملوك الفرس ، وقد جاء فى بعض الاخبار ان العمائم تيجان العرب ، وكان السلطان له نحوا من أربعة أشهر لم يلبس هذه التخفيفة الكبيرة ولاجلس على المصطبة التى يحكم عليها بالحوش ، فلما خرج فمشى وجلس على المصطبة ،

فبأسوا له الامراء الارض ، وهنــــوه بلبس التخفيفة الكبيرة .. » .

واعتاد السلطان الغورى لبس تخفيفة صغيرة ، بل انه يظهر بها فى أحد المواكب ، فى صفر من عام ٩٢٠ هـ ، ويبدو انه كان هناك نوع مدور من التخافيف الصغيرة ، ويبدو الغورى باحداها عند عودته من الاسكندرية فى الخامس عشر من شهر ذى الحجــة عام ٩٢٠ هـ (٣١ يناير ١٥١٧) ، ولم يكن ذلك يثير الاستياء فى عصر الغورى ، بعكس ما كان عليه الامر قبل ذلك ، فى سنة ٩٠٧ هـ (١٥٠١ ميلادية) حضر الســلطان محمد بن قايتباى صلاة الجمعة وهو يرتدى (تخفيفة صغيرة) فأثار استياء الامراء كلهم ، وكان السلطان يلبس العمامة الكبيرة فقط ، ولا يسمح لاحد غيره بارتدائها ، وفى لحظة نادرة كان السلطان يشعر بالرضا على أحد رجاله ، عندئذ يهديه عمامة كبيرة ، يقول ابن اياس :

« وفيه أنعم السلطان على أركاس من طراباى الذى كان نائب الشام ، وحضر الى القاهرة بتقدمة ألف وجعل له مرتبا على الاخيرة من غير اقطاع ، ورتب فى كل شهر له ألف دينار وفى كل سنة ألفى أردب قمح ، ورسم له بأن يقف فى المواكب فوق الامير طراباى رأس نوبة النوب ، وأحضر له تخفيفة من تخافيفه التى بالقرون الطـــوال فألبسها له . وقلع من عليه وألبسه له ؛ فحصل له فى ذلك اليوم غاية الجبر من السلطان » (١) .

من ناحية أخرى كانت العمامة تتغير مع الفصول ، فعند بداية الصيف بين الحــادى عشر والســــادس

(١) ابن اياس . الجزء الرابع ص١٠٠ طبعة محمد مصطفى وكاله .

والعشرين من مايو يرتدى السلطان عمامة بيضاء اللون ، ومع بداية فصل الشتاء ، بين السادس والتاسع والعشرين من شهر نوفمبر . كان يرتدي العمامة السوداء ، وهذه التواريخ تقارب نفس المواعيد التى يغير فيها جنود الشرطة والجيش أزياءهم الآن وكان تغيير السلطان لزيه ولعمامته من الاحداث الهامة التى يسجلها المؤرخون ، وهناك لوحة مشهورة تمثل السلطان الغورى وهذه التواريخ تقارب نفس المواعيد التى يغير فيها موجودة فى متحف اللوفر الآن ، ويبدو الغورى فيها مرتديا العمامة الضخمة ، « الناعورة » بقرونها الطوال ، وتعتبر اللوحة أرشيفا حيا للعمائم ، كانت هناك عمامة أخرى تحتل مرتبة كبيرة فى الاهمية ، وهى عمامة الخليفة العباسى ، ولونها أسود . مدورة ولها طرف « عزبة » يتدلى خلف الظهر ، واسم هذا الجزء الرفوف ، وطوله نصف ذراع ، وعرضه ثلث ذراع : تلك هى عمائم السلطنة والحكم والخلافة فماذا عن بقية العمائم ؟

الكلوتات والشرابيش

عمائم الامراء أقل حجما بالطبع ، لها اسم خاص ، مفرده « شربوش » وصفه المقريزى بأنه يشبه «التاج» ، يبدو مثلث الشكل ، وهو يوضع فوق الرأس بدون أن يلف حوله قماش ، وعندما كان المملوك يرقى الى رتبة فارس ، كان يلبس العمامة من يدى السلطان ، ويبدو ان الشربوش كان منتشرا فى العصر الايوبى ، وعصر المماليك البحرية وانه أصبح أقل انتشارا فى عصر المماليك

الجراكسة ، وكان هنـــــاك سوق بأكمله اسمه سوق الشرابشيين حيث تصنع أغطية الرأس الخاصة بالامراء، ومكان هـذا السوق اليوم منطقة الغورية فى القاهرة ، وقد استعادت احدى مدارس دمشق الاسم ، يقول ابن بطوطة انه نزل بمدرسة المالكية المعروفة بالشربشية ، كانت « الكلوتة » أخف من الشربوش ولكن تعادله فى الرتبة والقيمة ، اذ أنها كانت غطاء رأس الامراء أيضا ، ومع الزمن أصبحت رمزا للقادة والضباط الكبار ، وكان السلطان نفسه باعتباره قائدا أعلى للجيش يرتدى كلوتة صفراء ، وكانت الكلوتة بسيطة المظهر تشبه الى حـد كبير الطاقية فى عصرنا ، ولكن السلطان خليل بن قلاوون أصدر أوامره الى رجال عهـــــده بارتداء « الكلوتة » المطرزة .

يقول القلقشندى فى صبح الاعشى (١) :

« فأما ما به تغطية رءوسهم ، فقد تقدم أنهم كانوا فى الدولة الايوبية يلبسون كلوتات صفر بغير عمائم ، وكانت لهم ذوائب شعر يرسلونها خلفهم ، فلما كانت الدولة الأشرفية « خليل بن قلاوون » رحمه الله ، غير لونهـا من الصفرة الى الحمرة ، وأمر بالعمائم من فوقها ، وبقيت كذلك حتى حج الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله فى أواخر دولته فحلق رأسه ، فحلق الجميع رءوسهم ، واســـتمروا على الحلق الى الآن ، وكانت عمامتهم صغيرة فزيد فى قدرها » .

لقد أصبح للكلوتة شأن كبير بعد عهد السلطان خليل قلاوون وحدث فى سنة ٧١٠ هـ (١٣٠٢ ميلادية) ان

(١) جـ ٤ ص ٤٠ طبعة دار الكتب المصرية .

قبض على الأمير جيرأى نائب السلطنة بالشام . فنزعت عمامته « الكلوتة » والقيت على الارض ، والبسوه عمامة صغيرة بدلا منها ، وكان هذا يعنى فقدانه لكل نفوذه ، ثم تطور حجم « الكلوتة » وأصبحت ضخمة ، بها عدة انتفاخات ، ويبدو ان ثمنها كان مرتفعا ، أو أن هواية جمعها وجدت عند البعض ، اذ يحدثنا المقريزى عن الوزير عبد الله بن زنبور الذى وجدوا فى ثروته ستة آلاف عمامة من طراز الكلوتة ! ، حدث تطور آخر فى شكل « الكلوتة » خلال العصر الجركسي ، ولكنها استمرت بنفس الخطوط الخارجية حتى نهاية العصر المملوكى فى « ١٥١٧ » على أيدى العثمانيين ، ثمة عمامة أخرى كانت تخص العسكريين فقط واسمها « سراقوج » ويبدو ان أصله تترى ، وكان هناك نوع آخرمن العمامات « الطاقية » ، ولا تزال موجودة حتى اليوم فى الاحياء الشعبية بمصر ، كانت فى العصر المملوكى مدورة ومسطحة ، وارتفاعها يبلغ سدس ذراع تقريبا ، وفى عصر فرج بن برقوق ارتفعت الطاقية ، عندئذ حدث تغيير بسيط فى الجزء الاعلى منها فصنع على هيئة قبة صغيرة كثر فيها الحشو بمادة الورق ، وزين بفراء القندس ، ثم ضاقت الطاقية فى سنة ١٤٨١ عند القاعدة وصنعت من لونين مختلفين ، والطاقية بقيت الى يومنا هذا ولكن فى شكلها البسيط الاول ، وكان هناك نوع آخر من العمامة ، اسمه « زمط » ويعترف دوزى فى المعجم بأنه يجهل هذا اللباس ، لكن ماير فى كتابه « الملابس المملوكية » (١) يوضح انه غطاء الرأس ، ويبدو

---

(١) الملابس المملوكية ـ ماير ـ ترجمة صالح الشيتى ـ القاهرة ١٩٧٢

انه كان عمامة للفقراء ، لكن فى فترة معينة صدر قرار بتحريم لبسه على الفلاحين . ثم اصبح الزمط جزءا من الزى العسكرى الشركسى ، وعندما كان يصدر الامر بمعاقبة أحد الامراء كان يوضع على رأسه زمطا قديما .

رجال الدين

اضخم العمائم حجما كانت من نصيب رجال الدين ، وهى أهم جزء فى ملابسهم ، كما انهم لا يرتدون غيرها كغطاء للراس ، ولا زالوا حتى اليوم ، وقد أطلق عليهم « المتعممون » نظرا لانهم من المستحيل ان يظهروا بدون عمائم ، وكانت عمامات رجال الدين تستند الى الطبقة التى ينتمى اليها صاحبها فى المركز الاجتماعى ، وفى القرن الرابع عشر كان من المألوف أن يرتدى رجال الدين عمائم كبيرة شاذة فى حجمها ، وكان لبعضها ذوائب طويلة (١) وكان رجال الدين الفقراء يرتدون عمائم اقل حجما ، وكان خطيب الجمعة يرتدى عمامة سوداء يوضع فوقها طرطور أسود ، وكان للاشراف ، اى سلالة النبى عليه الصلاة والسلام عمائم خاصة تميزهم عن غيرهم ، وقد بدأ هذا التمييز فى عصر السلطان شعبان عندما امرهم بتثبيت قطع قماش خضراء فى عمائمهم ، ثم تطور الامر عندما اصبحت العمامة كلها خضراء . ولا زال رجال الدين من الاشراف يرتدون العمامة الخضراء حتى اليوم ، خاصة فى ريف مصر ، وحتى سنة سبعمائة لم يكن للعمامة علاقة بالاديان الثلاثة ، ولكن الوضع تغير بعد ان

---

(١) الملابس المملوكية ـ ماير ـ ترجمة صالح الشيتى . القاهرة ١٩٧٢ ص ٩٠

جاء الى مصر وزير مغربى فاجتمع بالملك الناصر محمد بن قلاوون ونائبه الامير سـلار . وتحـدث معهم فى أمر اليهود والنصارى ، وهاله ما رآه من تمتعهم بالحقوق ، وقال انهم عندهم فى غاية الذل والهوان ، فأثر كلامه عند أهل الدولة ، ولا سيما الامير بيبرس الجاشنكير فأمر ان تغير عمائم النصارى واليهود ، فيلبس النصارى العمائم الزرق ، واليهود العمائم الصفر ، ولم يستمر هذا الوضع كثيرا غير أن السلطان الصـالح صالح ابن الملك النـاصر أمر فى سنة ٧٥٥ بمنع اليهود والنصارى من عدة أمور وألزمهم بارتداء العمائم الزرقاء والصفراء ، ويبدو ان العمائم التى كان يرتديها أفـراد الشعب كانت تستخدم لغرض آخر وهو استعمالها كمكان لحفظ النقود ، وهذا مستمر حتى الآن فى الريف ، عندما تفاجأ بأحد الفلاحين قد مد يده الى عمامته وأخرج من طياتها ورقة نقدية ، ولهذا السبب كثر خطف العمائم فى الطرقات أثناء الاضطرابات التى كان يتسبب فيهـا المماليك ، اذ أنهم كانوا يخطفون أكياس نقود ، وليس مجرد عمائم ..

النساء

فى شهر محرم سنة ٦٦٢ هجرية ، صدر مرسوم يحرم على النساء ارتداء العمـامة ، ومن الواضح ان ارتداء النساء للعمائم كان مثار جدل شديد بين الفقهاء ورجال الدين ، ولكن العمامة لم تكن زيا شائعا للنساء ، انما كن يرتدين قماش يطلق عليها اسم « العصابة » وهو

اسم لا زال يطلق حتى الآن على الطرح والمناديل الحريرية في الاحيـــاء الشـــعبية المصرية ، لـكن عصـــب النســـاء في العصر المملوكي كانت تحلى بالجواهر ، والزخارف الفنية ، وخلال النصف الثـانى من القرن الخامس عشر حل « الطرطور » محل العمائم ، وفي رجب سنة ٨٧٦ هـ ، أصدر السلطان قايتباى أمرا بوجب على كل امرأة ان تمتنع عن ارتداء « عصابة » أو « سراقوس » من الحرير ؛ وصـــدرت الاوامر لرجال المحتسب بأن يضربوا أى امرأة ترى في الاسواق مرتدية هذه العصب. وسرى الخوف الى النساء فصرن يخـــرجن حاسرات الرءوس ، وداخل منـــازلهن كن يرتدين غطاء الرأس المحرم .

لقد ولى العصر الذهبي للعمـــامة مع انتهاء العصر المملوكي عام ٩٢٢ هـ ـ ١٥١٧ م ، مع الغزو العثماني ، وعندما جاء ادوارد لين في بداية القرن التاسع عشر لم يكن تبقى الكثير من طبقات العمائم وأنواعها ، انه يصف لنا غطاء للرأس يكاد يكون هو الموجود حاليا والذي يرتديه رجال الدين المســلمين قلنسوة قطنية صغيرة مطابقة للرأس ، ثم طـــربوش أحمر من الجوخ ، ويلف بقطعة طويلة من الحرير ، اندثرت العمامة الزاهية اذن ، الناعورة ، والكلوتة ، والشربوش ، وأصبح لفظ العمامة يعبر الآن أحيانا عن السخرية ، خاصة عندما يقول الناس « أصله لبس العمة » أى خدع ، لانه مغفل ، أصبحت العمامة توحي بالغفلة والبله ، بعد ان كانت رمزا للسلطان وللغضب وللجاه ، ولطبقة الانسان ، ولديانته وسبحان مغير الاحوال !

الخيول المملوكية

القاهرة المملوكية .

نتجه الى ميدان الرميلة الممتد تحت قلعة الجبل ، ربما كان التجول فى سوق الخيل مدخلا طبيعيا الى عالم رحب ، وثيق الصلة بكافة تفاصيل الحياة خـلال العصور الوسطى ، لم يتغير موقع هذا السوق طـوال العصر الوسيط ، ترتفع صيحات الدلالين والمنادين ، أنواع عديدة من الخيول ، لكنها موزعة على ثلاثة أقسام رئيسية ، الخيول العربية ، أنفسها ، وأغلاها قيمـة ، مطلوبة للسباق ، وللحاق ، مصدرها بلاد الحجـاز ، ونجد ، واليمن ، والشام ، والعراق ومصر وبرقة . النوع الثانى ،تركى أو عجمى وكانت تسمى الهمـاليج ، أو الاكاديش ، مرغوبة لصـبرها على السير الحثيث ، وسرعة المشى ، النوع الثالث مولد بين العربية والاعجمية، اذا كان الاب عجميا والام عربية قيل له هجين ، وهى وسط بين النوعين السابقين ، أما الخيول الافرنجية فهى أفشل الانواع ، وأرخصها ثمنـا هنا ، ولا يقبل عليهـا أحد .

الخيول العـربية نفسها تنقسم الى عدة أنساب ،

الحجازى أشرفها ، والنجدى أيمنها ، والمصرى افرهها ، والفربى أنسلها ، وعندما ترد الى السوق خيول مؤصلة فانها تعرض على السلطان ، كان السلاطين مهتمين جدا باقتناء أنفس الانواع ، وأنقى الانساب ، كان الناصر بن قلاوون شغوفا بجلب الخيول العربية ، وبسببها بالغ فى اكرام العرب من آل مهنا وآل فضل المتخصصين فى احضارها له ، ولم يكن يبخل بأى ثمن ، حتى آتته العرب بأجود الانواع ، ولم تبن طائفة الا قادت اليه عناق خيلها ، وأفرد لها دفاتر تسجل انساب الخيل ، كما تسجل أنساب الآدميين ، وعندما مات ترك خلفه ما يقرب من ثمانية آلاف فرس فى اصطبلاته ، أما السلطان برقوق ، الذى هدد تيمورلنك بخيوله البرقية العربية ـ فقد خلف وراءه ستة آلاف فرس . كان اقتناء الخيول والاهتمام بها مظهرا من مظاهر القوة ، والجاه ، ولا عجب ، فقد قام النظام المملوكى على دعامتين ، الفارس ، والفرس ، ربما كان هذا سببا قويا فى أهمية سوق الخيل ، وقربه من قلعة الجبل ، مركز الحكم ، ورمز السلطة فى مصر وقتئذ ، فى السوق نرى ألوانا عديدة ، غير ان الالوان الاساسية أربعة ، وما عدا ذلك متفرع منها ، الاول : اللون الابيض ، وكان سلاطين المماليك يفضلونها ، ويطلقون عليها ، الفرس البوز ، ويذكر ابن اياس فى بدائع الزهور ان السلطان الغورى عندما خلع على قرقد بيك العثمانى أهداه فرس بوز بسرج ذهب وكنبوش ، ولا يذكر خروج السلطان الغورى فى المواكب الا ممتطيا فرس بوز أبيض ، الثانى : هو الاسود ، وكل فرس شديد السواد كان يطلق عليها

«أدهم» ، والثالث : هو اللون الاحمر ، ويسمى الكميت ، واللون الرابع : هو الاصفر ، ومعرفة ألوان الخيل ضرورية بالنسبة للفرسان ، وقادة الوحدات العسكرية ، وأحيانا كان بعض الفرسان يحرصون على ركوب فرس ذات لون معين فى كل يوم ، وجرى العرف أن يكون ركوب الادهم اى الاسود يوم السبت ، ويوم الاحد للأبيض ، والاثنين للأخضر ، والثلاثاء للكميت ، والاربعاء للابلقى وهو ما كان بياضه بين بين ، ويوم الخميس للاشقر ، ويوم الجمعة للمحجل ، ولهذه الالوان علاقة بالتفاؤل ، ولا يقتصر التفاؤل والتشاؤم على اللون العام للفرس ، وانما يتعلق الامر ببعض العلامات فى جسده ، فالغرة أى البياض الذى يكون فى وجه الفرس ، اذا استدارت أو كانت تشبه حرف الحاء فانها تدل على اليمن والبركة ، واذا اصاب البياض خدا دون الآخر ، فان الفرس يكون مكروها ، ويتشائم به ، كذلك ان غطت عينا دون الاخرى ، فيصبح من المتوقع ان تقتل مع صاحبها ، أما اذا غطت العينين فانها تقهر مع فارسها ، وان مالت الى اليمين تدل على الشؤم ، والى اليسار فانها تدل على المكاسب ، وان وصلت الى الانف فانها تدل على البركة والخير ، واذا كان هناك لون يخالف لون الفرس فى رجلين مختلفين فانه مكروه ، وفى سنة ٨٠٢ هـ ١٣٩٩ م ، كسر الامير تنم وسقط أسيرا ، واستفسر المؤرخ ابن تغرى بردى عن سبب وقوع الامير عن فرسه ، ثم أسره ، فقالوا كان فى فرسه شؤم ، وأشاروا الى هذه العلامة ، وقالوا ان أصحابه نهوه عن ركوبه فأبى .

فى سوق الخيل نلاحظ ان المشترين والفاحصين

يطلبون التحديق لاختبـارها وفحصها ، والتفرس له قواعد ، فلابد ان ينظر الى الفرس فى جميع حالاته ، خاصة أثناء الجـــرى ، والفرس الجيـــــد يعرف من شدة نفسه ، وحدة نظره ، وصفر كعبيه ، ورقة جحافله ، وقصر ساقيه ، وقلة التوائه ، ولين التفاته ، واذا نظر الانسان الى آثار قوائمه وقت جريه ، وقاس ما بينهما ، فاذا كانت ستة أذرع ، يـكون فرسا سباقا ، واذا كانت المسافة أربعة أذرع أو ثلاثة فهو بطىء ، أما من أربعة أذرع الى خمسة فيكون متوسط الجرى ، كما يجب أن يكون صافيا عند الصهيل ، فهذا دليل صـــحة الرئتين ، وعلامات أخرى عديدة كان المتفرسون يعرفونها ، وسجلتها كتب الفروسية .

اذا ما فرغنا من التجول فى سوق الخيل ، فاننا نصعد قليلا الى القلعة ، الى باب السلسلة ، هنا أكبر الاصطبلات فى البلاد ، اصطبل السلطان بما يحتويه ..

الاصطبل السلطانى

.. البناء مسقوف داخل القلعة ، جـيد التهـوية ، يضم عدة منشآت ، أولها المكان المخصص لايواء الخيول، الارض مفروشة برمل ناعم ، أو بأعواد من خشب ، وذلك حتى اذا راث الفرس أو بال فيردم ، ويأتى بغيره رملا يابسا ، أو أعواد أخرى نظيفة ، والتراب غير مستحب لان البول اذا اختلط به يحـــدث رائحة قذرة ، لان الرطوبة تلين الحوافر بخلاف الارض الصلبة ، سواس الاصطبل يمسحون أبدانها صباح كل يوم وينظفونها ،

كما أنهم مسئولون عن تمريغ الفرس بعد المجهود الذى تبذله فى الجرى لتليين أعضـــائها ، من المبانى الملحقة بالاصطبل ، الركاب خانا ، أى المكان الذى تحفظ فيه معدات الركوب ، من سروج ، واللجم ، والكنابيش ، والراكيب ، وأردية الخيول ، والمخالى ، كثير من هذه المعدات محلى بالذهب ، أو الفضة ، ويقول المقريزى انه رأى بعض الركاب مصنوع من الذهب الخالص ، المسئول عن هذا الجزء هو المهتار (كبير الغلمان) ومعه عدد من الرجال لمعاونته ، وكان الاصطبل يحتوى على ما يلزم ثلاثة آلاف فرس ، وتجهيزها بشكل كامل ، يسمى الاصطبل وملحقاته بالاصطبلات الشريفـــة ، أما ما يخص الامراء فيطلق عليـــه الاصطبلات السعيدة ، وينقسم الاصطبل السلطانى الى عدة أقسام :

- الاصطبل الخاص وبه الخيول الخاصة بالسلطان .
- اصطبل الحجورة ، وبه الخيول الخاصة بلعبـــة الاكرة ، أو الرياضة .
- اصطبل الجوق ، وبه خيـــــول المماليك التابعين للسلطان .
- اصطبل البيمارستان وبه الخيول الضعيفة .
- اصطبل الجشاء ، وبه الخيـــول المهرمة التى حان أجلها .
- اصطبل البريد ،وبه خيل البريد .

ومن المبانى الملحقة ، الجامع الســـلطانى بالاصطبل ، ولان المكان يأوى الخيول رمز القوة ، فقد كان السلاطين ينزلون اليه ، ويجلســــون فوق المقعـــد المطل عليـــه ، ويديرون امور الحكم ، ويسبق نزولهم موكب الاصطبل

الذى يتكرر مرتين في الاسبوع ، السبت ، والثلاثاء ؛ وبدأت هذه العادة منذ أيام السلطان برقوق ، وفى زمن السلطان تمربغا الظاهرى سار المنادى معلنا بأن كل مظلوم أوله شكوى عليه الوقوف بالاصطبل يوم السبت والثلاثاء للنظر فى شكواه . وكثيرا ما كانت تنفذ العقوبات الفورية فى الاصطبل ، يقول ابن أياس انه فى جمادى الاخرة سنة ٨٧٢ هـ ، تغير خاطر السلطان الظاهر ابن سعيد تمربغا على القاضى خروف فضربه بين يديه بالاصطبل ضربا مبرحا ، كما تمت مبايعة السلطان فى الاصطبل أحيانا ، فى سنة ٧٨٤ هـ ، حضر الخليفة المتوكل على الله ، وقضاة الاسلام الاربعة وعلماء العصر الى الاصطبل السلطانى ، وقلدوا برقوق أمور العباد والبلاد ، وفى سنة ٨٠١ تكرر نفس المشهد بالاصطبل عندما بويع فرج بن السلطان برقوق بالسلطنة ، وتقلد أمور المسلمين ، كذلك قايتباى العظيم بويع فى الاصطبل ، وكثيرا ما تم عرض المماليك فى الاصطبل ، كما جرت فيه مشاورات عديدة لتوزيع الثروات ، أو لحسم المنازعات ، وكانت اصطبلات الامراء تعكس كل منها مدى أهمية الامير وقوة مركزه ، ونفوذه ، بعدد ما تحتويه من خيول ، ومسجد السلطان حسن هذه التحفة المعمارية القائمة فى مواجهة القلعة بين مكان اصطبلين كانا يملكهما الامير يلبغا اليحياوى ، والامير الطنبغا المارداني ، وكان نواب السلاطين بالشام يمتلكون اصطبلات ضخمة ، وكثيرا ما كان السلطان ينفق عليها ، كما حدث فى زمن السلطان بيبرس ، ومن تلاه من ملوك .

وظائف الاصطبل

المسئول الاول هنا هو أمير أخور كبير ، وأخور كلمة فارسية تعنى العلف أو العليق ، أى انه أمير العلف ، ولا يتولى الوظيفة الا أمير مقدم ألف ، أعلى رتبة بين المماليك ، ولا يتولاها الا أهل الثقة ، بل ان هذه الثقة وصلت الى حد ائتمانهم على حريم السلطان ، كما حدث فى عصر الناصر محمد بن قلاوون عندما ائتمن أمير آخور على حريمه ، وأمره بخروجه معهن الى الحجاز ، كما انه زوج الامير يشبك أمير أخور ابنته ، كما كان السلاطين يسيرون فى جنازات أخوريتهم ، وفى أيام الفتن كان الاصطبل أول ما يتعرض للنهب ، وذلك لكسر شوكة صاحبه ، وتجريده من قوته ، حدث فى زمن السلطان المنصور بن بكر بن الناصر محمد أن تكتل الامراء ضده ، وما أن علم بذلك حتى أسرع الى الاصطبل وأمر أيدغمش أمير أخور بشد الخيل للحرب ، لكن الامير أخبره انه لم يبق فى الاصطبل غلام أو سائس ، عندئذ علم السلطان ان أمير آخور قد خذله ، وانه هزم ، كذلك عهد السلاطين الى أمراء آخوريتهم بكثير من المهام السياسية والعسكرية ، وذلك لحنكتهم وقدرتهم ، ففى سنة ٨٠١ هـ ، توجه سودون الطيار الامير آخور الى الشام لكشف أخبار ابن عثمان ، وفى سنة ٩٢٠ هـ عين السلطان الغورى الامير قانى باى أمير آخور قائدا للتجريدة التى توجهت الى حلب ، ومن قبل فى سنة ٨٠٣ هـ توجه أمير آخور الى تيمورلنك بكتاب السلطان .

وكانت الوظيفة ترشح صاحبها ليلي مناصب أعلى ، حتى السلطنة نفسها ، فالسـلطان برقوق كان أمير آخور ، والسلطان يلباى أيضا ، ولكن أحيانا كان أمير أخور يرقى الى منصب أكبر ، ولكنه من الناحية العملية أقل نفوذا ، وحدث ذلك للأمير جقمق العلائى فى سنة ٨٣٧ هـ عندما رقي الى أمير مجلس ، وأشـار عليه اصحابه بأن أمير أخور كانت أفضل له من ناحية المنفعة والنفوذ ، واذا كان لابد من التغيير فليختار أمير سلاح لتعوضه هذه الوظيفة عما فاته ، وظل يسعى حتى تحقق ذلك . يعاون أمير أخور فى ادارة الاصطبل السلطانى موظفون آخرون لهم درجات ومراتب ، منهم الراخور وهذه الكلمة مركبة من لفظين فارسيين معناهما ، كبير العلف ، وهم كبـار المسئولين عن علف الدواب ، أما الغلمان وسواس الخيل والاسطوات فهم المتصدين لخدمة الخيول مباشرة ، يقومون بتنقية العليق ، ويطعمونهـا بأمانة ، لانه لا لسان لها يشكوه الا الله ، ولا تسـجل كتب التاريخ حوادث اختلاس من العلف ، والله أعلم ! ، وكان السواس يعلقون أحرازا فى رقاب الخيول تشتمل على آيات من القرآن الكريم ، وقد عاب أحد مؤلفى كتب الفروسية عليهم ذلك ، لانها تتمرغ فى القذارة ، لا تخرج الخيول من الاصطبل الا مرتدية مايتفق ، فلكل لون زى من العبى والكنابيش ، الفرس الاسود له العباءة البيضاء ، والدوالى الابيض ، والاشهب له العباءة السوداءوالدوالى الاسود ، والاحمر له العباءة الحمراء ، والاشقر له اللون العسلى ، والاصفر له العباءة التى من نفس لونه ، أما اذا كان الفرس بوز اى أبيض ، فان لون العباءة يكون بنفسجيا ، واللون الاخير يطل علينا به جواد السلطان

الغورى فى مواكبه وخرجاته التى وصفها ابن اياس ؛ أيضا فان الوزن المحدد لكل فرس معدود ، وقد فضل العارفون بالجياد المائة وعشرين ، فلا تشمل وزن الفارس والسلاح ، والعدد ، حتى لا ترهق الفرس ، وهـذه الخيول مدربة عبر عناء طويل وصبر ، فالخيول ذات نفوس عزيزة أبية ، وليست كغيرها من البغـال او الحمير ، ان فرس السلطان دربت على أن تحمـل البراءة بالجلاجل ، وتعليق الاجراس ، وحمل الصولجان ، والخوض فى الماء ، وتخطى السواقى ، والقعود فى رفق ، وبقية الخيول مدربة على دخـول الازقة ، والاسواق ، والمرور بين الجماعات ، والنظر الى الاعلام ، والاشياء الضخمة العجيبة ، كالافيال ، والاسـود ، والزراف ، واذا خاف لا يضرب حتى لا ينفر ويجزع ، انما يؤخـذ برفق ، كما انها مدربة على الدوران برفق ، والقعود ؛ والانعطاف يمنة ويسرة ، وهناك قواعد دقيقة تنظم عملية اللجم ، وتحدد أنواعها ، كذلك السروج ، وعملية أنعال الفرس ، وأحيانا كانت الامور المالية تنعكس على الناس ، لقد كان المماليك يبالغون فى كسوة خيولهم ، ومن هنا فرض بعض السـلاطين ضريبة خاصة بالعبى ، لـكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ألغاها سنة ٧١٠هـ ، كما كانت بعض الاضطرابات سببها أكل الخيول من تبن وشعير ، كان يصرف للملوك جراية من الخبز لطعامه ، وجراية من الشعير لاطعام خيوله ، فى سنة ٨٥٩ هـ ثار المماليك الجلبان وأشاعوا الفـوضى وتوجهوا الى بولاق ونهبوا شون الامراء ليحصلوا على الشعير لخيولهم ، وفى سنة ٨٦١ هـ كانت أحد مطالب المماليك من السلطان أن يكون الشعير والتبن مغربلا ، وفى سنة ٩٢٠ هـ

انتقد المماليك السلطان الغورى لان العلق الخاص بالخيول مسوس لا تقبل عليه الجياد ونزل السلطان عند رغباتهم وأمر بصرف العليق المغــــربل لهم ، وفى الربيع كانت الخيول تخرج الى المراعى لتأكل البرسيم ، وكان هـذا يسبب بعض الخطورة أحيانا ، فى سنة ٧٥٥ هـ ، عندما هزم السلطان حسن من مملوكه يلبغا ، ألبس مماليكه فى القلعة ، لكنه لم يجد لهم خيلا ، لان الخيول كانت ترعى فى مراعى الربيع ، ولكن فى حالة المخاطر الخــارجية كانوا يقصرون الفترة الزمنية ، أو يستدعون الخيول من مراعيها ، وفى فصل الصيف اعتادت الخيول على الدريس ونظرا لاهميته عمد المــــاليك الى تخزينه ، وفى سنة ٩١١ هـ ، وعندما بدأ الشاه اسماعيل الصوفى يستعد لمهاجمة البلاد ، اكثر المماليك من تخزين الدريس وصاروا يمسكون الناس لنقله ، وسرى الارتباك بسبب ذلك ، وقال العامة : «اهرب ياتعيس ، والا يحملوك الدريس»، وفى سنة ٩٢٢ هـ عندما أشيع اقتراب ابن عثمان من بلبيس صدر أمر باحراق الشون المحتــوية على التبن والدريس والقمح والشعير ، حتى لا ينهبها عسكر ابن عثمان ، فتزداد خيولهم قوة . وكان المصروف على عليق الخيول مبالغ ضخمة ، السلطان بيبرس كان يصرف على دوابه ودواب من يلوذ به فى كل سنة ، ثمانمائة الف درهم ، وكانت خيوله تستهلك خمس عشر ألف عليقة فى اليوم الواحد ، أى ستمائة أردب ، والســــلطان برقوق ، بلغ عليق خيوله فى الشهر الواحد أحد عشر ألف أردب شعير وفول ، وكان الـذى يشرف على كل هذه الشئون هو أمير أخور كبير ...

القسوة

نتجه الآن الى أحدى ساحات السباق ، ان الفروسيه ترتبط ارتباطا وثيقا بالرياضة ، وسباق الخيل أهم ألوان الرياضة ، واكثرها استعراضا للقوة ، كان السلطان بيبرس يأمر عساكره بالركوب الى الميدان الاسود تحت القلعة ويتراكضون فيه ، وجرت على ذلك عادة السلاطين من بعده الذين خصصوا ساحات متعددة للسباق . واعتاد العرب ان يسموا ساحة السباق بالحلبة ، أما موضع المسابقة فيسمي بالمضمار ، والمدى يسمي غايته ، وتكون الغاية طبقا لما يتفق عليه وكانوا يجعلونها مائة غلوة . والغلوة رمية السهم العربى ، وهى خمسمائة ذراع ، وقد تجعلها من مواضع معلومة الى مواضع معلومة وهذا ما طبقه المماليك ، ويذكر المقريزى انه رأى بميدان القبق عواميد من رخام تعرف بعواميد السباق ، بين كل عامودين مسافة بعيدة ، وانه كان بين قبة الامام الشافعى وباب القرافة ميدان تتسابق فيه الامراء والاجناس ، وكان المماليك يتراهنون كالعرب ، وأسلوب السباق الذى نراه فى الساحة ، يتلخص فى وقوف الخيل فى الميدان . ثم تصف على المقوس ، أى الحبل الذى يمد فى صدور الخيل لتكون متساوية ، وترص حوافرها كالمشط المنظوم، ثم ترفع المقوس كأسرع ما يكون ، فتنطلق عشرة ، عشرة ، دفعة واحدة ، والسابق يحتاج الى فارس ذكى ، عارف بأحوال الخيل، خفيف الجسم ، قليل اللحم ، فى عصر السلطان الناصر أهداه الامير العربى مهنا فرسا شهباء للسباق ، وطلب الا يركبها عند السباق الا بدوى قادها ، وجاءت هذه

الفرس فى مشهد طريف تحفظه لنا كتب المقريزى وابن تغردى بردى اد كان يركبها بدوى بدون سرج ، وقادها عبر السباق وهو يرتدى قميص وطاقيه فقط ، وسبقت كل الخيول .

هناك ساحات أخرى كان المماليك يلعبون فيهــــا الكرة أو الجوكان ، وهى اللعبة المعروفة الآن باسم بولو ، اهتم السلاطين بها وخصصوا لها الخيول ، والموظفين ، كان الواحد منهم يسمى الجوكندار ، اى الذى يحمل الجوكان ، وهى عصا مدهونة طولها نحوا من أربعــة اذرع ، وبرأسها خشبة مخروطة محــدودبة تفيض عن نصف ذراع ، ويقسم ميدان اللعب بخطوط بيضــاء ، ويقف فرسان المماليك بيد كل منهم عصا طويلة ، ويحاول كل منهم جذب الكرة التى توضع فى وسط الميدان ، وكان المهزوم يقيم وليمة كبيرة ، واحيانا كان السلطان يتحمل نفقاتها تخفيفا عن المغلوب ، وقد حدث ان توفى الملك السعيد محمد بن الظــاهر بيبرس عقب تعثره بفرسه أثناء لعبه بالكرة عام ٦٧٨ هـ .

الفرسان

كان تدريب الفارس يبدأ منــذ أيام الصغر ، فى البداية يعلمونه القراءة والكتابة ويلقنونه آيات القرآن ، والفروض الدينية ، ويلقنونه الاخلاق المثــالية ، وفى المرحلة التالية يؤخذ المملوك بالشدة ، فيتعلم السباحة ، واللعب بالسيف ، والضرب بالرمح والقذف بالاطواق . وركوب الخيل ، ويبدأ تعليمه الخيل بتعوده على الوثوب والنزول على تمثال الفرس من الطين والخشب ، فان

أتقنه جعل على التمثال سرج ، فان أتقنه ، ارتدى السلاح ووثب به ، ثم يبدأ الوثوب على فرس عارية من السرج ، ثابتة ، فاذا حذق ذلك تدرب على ركوب فرس مسرجة ، وطرق أخذ الاعنة أو امســـــاك الرمح ، فاذا اكتسب الخفة ، تمرن على السيوف شيئا فشيئا ، حتى يصل الى الركض بالفرس ، ثم يتمرن على النزول والركوب من الفرس أثناء ركضه ، أو القفز خلف فارس راكب ، ثم يتدرب على الالتفات والدوران ودخول البرجاس ، وعند بروز مواهب المملوك ، فانه يشترك فى مبارزة أو سباق ، وعند ثبوت شجاعته تكون مكافأته أن يعتق وترد اليه حريته ، ويوكل اليه أمر احدى الوظائف ويكتب له اقطاعها ، جزء من الارض يستغله كما يشاء ، ويمنح خيلا وقماشا ، ويترقى فى سلك الوظائف حتى يصل الى ما شاء له حظه ، وكثيرا ما جنح بعضهم الى مطالعة العلم ، ودراسة الادب ، أو كتابة الشعر ، وشجاعة الفرسان المماليك ليست فى حاجة للبرهنة عليها ، وأمامنا حروبهم خلال فترة دولة المماليك البحــــرية وايقاعهم بالفرنجة ، وهم خلاصة جنود أوروبا ، وهزيمتهم للتتار الذين أشاعوا الرعب فى العالم ، ومن أزهى مشـــاهد التاريخ وأكثرها اثارة للحنين ، والخيال ، وصف ابن أياس والمقريزى ، وابن تغرى بردى ، وغيرهم لركوب فرسان المماليك ، ونزولهم عن القلعــة ممتطين خيولهم بينما تسمع قعقعات أسلحتهم ، وتبهر العيـــون الوان جيادهم ، وأرديتهم ، والكنابيش المطعمة بالذهب ، وتلك المباهاة بالقوة والفروسية .

الحرب

يعد الفارس سنوات من أجل لحظات أو أيام قليلة عندما تنشب الحرب ، كذلك الخيول ، وكما يتوزع المحاربون على اقسام الجيش المختلفة ، فان الجياد كذلك ، هناك خيول النوبة ، وتخص السلطان ، والقواد ، وهى مسرجة دائما ، فى الليل والنهار ، تقف فى اقرب مكان من السلطان احتياطا لكل مفاجأة .

وخيول الطلائع ، تخصص للاستكشاف ، ولابد ان تكون من أجود الانواع ، سليمة الحوافر ، لا تجمح .

وخيول السرايا ، تضم أنواع ممتازة ترسل للاغارات السريعة على العدو ، وسميت بالسرايا لانها تسرى بالليل ، أما خيول الكمين ، فيجب أن تكون قليلة الشغب ، لا صهيل لها ، ولا حمحمة ، صابرة ، لا تضجر ، حسنة الاخلاق ، لا سعال بها ، ولا وهن ، ولابد أن تكون كلها ذكورا أو اناثا ، اذ أن اجتماع ذكر الخيل وانثاه ، ربما أثار الجلبة .

أما الخيل الطواشى ، فهى صعبة الانقياد ، التى لا تقع منها ، وتلك لها وظيفة فى الحرب ، اذ تضرب بالسياط ، وتدفع بالضجيج صوب مخيم العدو لاشاعة الرعب فيه تمهيدا لهجوم الفرسان عليهم ، ويتردد تعبير جرائد الخيل كثيرا فى كتاب ابن اياس بدائع الزهور ، وتلك تستخدم لاتباع المنهزمين ، ومطاردتهم .

الركوب

وفى أيام السلم ، يتم الركوب وفقا لتقاليد ونظم ،

اول المواكب ، موكب تقليد السلطان ، تقدم اليه فرس النـــــوبة بسرج ذهب ، وكنبوش زركشى ، واذا هم بالركوب يقرأ الفاتحة ، وعند وضع رجله فى الركاب يقول : « بسم الله سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وانا الى ربنا لمنقلبون » . ويخرج راكبا والامراء مشاة بين يديه الى ظاهر القاهرة ، حيث يلبس خلعة السلطنة ، ثم يدخل من باب الفتوح ، او باب النصر ، والوزير بين يديه راكبا فرســه حاملا عهــــد السلطان الذى كتبه له الخليفة بسلطنة مصر فوق رأسه .

وكان هناك موكب الركوب فى العيدين ، ومن شعاراته أن يكون فى عنق فرس الســـــلطان ، رقبة من حرير أصفر ، وكانت الغاشية تحمل بين يدى السلطان وهى غاشية سرج محلاة بالذهب ، يحملها الركبدار ، يرفعها على يديه ، يلفتها يمينا وشمالا ، وأمام السلطان أيضا يركب الجفتاوات ، وهمـــا اثنان من موظفى الاصطبل متقاربان فى السن ، عليهمــــا قباءان اصفران ، وعلى رأسيهما قبعتان مزركشتان وتحتهما فرسان أشــهبان يشبهان فرس السلطان ، كأنمــا أعدتا لركوبه ، ومن المواكب الاخرى التى يركب فيها الســــلطان موكب الاصطبل ، ومواكب الكرة ، وموكب كسر الخليج ووفاء النيل ، وموكب دوران الحمـــــل ، وموكب الصيد والاسفار .

وكان كبار الامراء يركبون الخيول النفيسة أما اتباعهم فيركبون البغال ، كذلك كان أصحاب الوظائف الدينية من القضاة والعلماء يركبون البغال ، وان كان يسمح للمتعممين بركوب الخيل واقتنائها كمظهر من مظـــاهر

احترامهم ، أما عامة الناس المسلمين ، فيركبون البغال، اما أهل الذمة من نصارى ويهود فكانوا يركبون الحمير .

***

نعود الى سوق الخيل تحت قلعة الجبل ، ولا تزال دلائل عديدة تكشف أهميتها ، فالسلاطين اوصوا مماليكهم بألا يقفوا فى أسواق العطارين ، والقماش ، والصاغة ، ولكن يجب أن يقفوا بسوق الخيل ، أو سوق السلاح ، أو سوق الكتب .

ولان سوق الخيل يتضمن العديد من معانى الجهاد ، ولان السلاطين يؤمنون ببركة الخيل ، فقد جرت عادتهم على الاحتفال بشفائهم هنا ، واذا مرض عزيز لديهم ، فانهم يأمرون ببيع أحد الخيول الثمينة بالسوق ، والتصدق بثمنه على الفقراء ، هكذا فعل ، السلطان برقوق ، والاشرف برسباى ، والسلطان خشقدم ، والمؤيد شيخ ، والسلطان الكامل .

ولأن السوق قريبة من القلعة ، فكثيرا ما وقع فيها العديد من الاضطرابات السياسية ، والاقتصادية ، فى سنة ٧٤٢ هـ ، تجمع أفراد من الشعب بسوق الخيل ، وطالبوا بذهابهم الى الملك الناصر والعودة به ، وفى سنة ٨٤١ هـ عندما مرض السلطان برسباى وأصبح احتمال موته قريبا ، تجمع المماليك بسوق الخيل تحت القلعة ، وتوجد أسواق أخرى تكمل سوق الخيل ، منها سوق الهمازين ، لبيع المهاميز والتى صنع بعضها من الذهب أو الفضة ، وكان هذا نادرا ثم بطل مع مرور السنوات ، أما سوق اللجميين فتباع فيه آلات اللجم

مما يتخذ من الجـــلد ، وكان بعضها يصنع من الجلد البلغارى الاسود ، أما سوق الجوخيين فمخصص لبيع الجوخ المستورد من بلاد الفرنجة ، وكان يصنع منه ثياب السروج ..

ونفارق عالم الخيول ، وسوق الخيل ، وكل ما يتعلق بها ، بعد ان طواها الزمن ، وهان أمرها ، وأصبحت فى أحوال عملها تجر العربات الكارو المحملة بالاثقال ، وتسام العذاب ، وفى أحوال الحظ ، تستخدم كحلبة راكدة فى المواكب ، وبعض الاستقبالات الرسمية .

أسواق القاهرة العربية

للسوق العربية هندسة بناء خفية ، وتستر خلفها رؤية للحياة ، وللتجارة ، وللعلاقات بين البشر ، وفيها تتشابك المصائر ، وحتى زماننا هذا تحتفظ القاهرة بأسواق متكاملة لم تنل منها العمارة الحديثة ، أو زحف الخرسانة ، بل ان الفلسفة الخفية انتقلت الى الاسواق المصرية التى تغرق فى بحر من النيون الصناعى .

***

.. تتوحد الظلال ، والروائح ، ومنحنيات الطرق ، وملامح الانتظار ، والرغبة ، تماما كما تتشابه الملامح البشرية ، فى الاسواق العربية ، فى القاهرة ،الغورية، والحمزاوى المثقل بالتوابل والعطور ، وخان الخليلى مجمع التحف وآيات الابداع الانسانى ، والتربيعة ، لا ننأى عن الخطوط والقسمات عندما ننتقل الى سوق الحميدية ، المتد ، الطويل كقطار يتحرك فى ثبات عبر محطات متوالية من الزمن لا تنال من معالمه ، وأرضيته المفروشة بظلال السقف المعلق ، كذلك سوق الشورجه فى بغداد ، والسوق الرئيسى فى البصرة ، والسوق

البديع المفروش بضوء خفى المصدر فى أربيل ، هذا ما أتيح لى أن آراه ، وأن أعايشه ، أما ما لم أشاهده فى الرباط أو تونس أو الجزائر أو عمان ، أو اليمن ، فلا يشى باختلاف كبير ، انما تؤكد اللوحات عناصر التشابه .

الارزاق على الله

يحدثنا المقريزى عن أسواق القاهرة .

« .. والقصبة هى أعظم أسواق مصر ، وسمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول ان القصبة تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت .

هذا العدد الهائل من الحوانيت كان يبدأ فى زمن المقريزى بعد أن يلج الداخل من باب الفتوح ، القائم الآن ، فيما يلى ذلك الباب كان يوجد سوق اللحم ، والخضر ، كانت حوانيت القصابين تصطف متجاورة ، تبيع لحم الضأن والماعز ، وكان القصابون يلفون اللحم فى ورق الموز ، ومكان هذا السوق اليوم العديد من التجار الذين اختصوا ببيع الليمون والزيتون الاخضر ، ويعرف حاليا باسم سوق الليمون ، وهنا نلاحظ السمة الاولى للأسواق العربية ، انها التقسيم النوعى ، فكل سلعة تجدها فى مكان معين ، فرع بأكمله يتخصص فى بضاعة معينة ، وتتجاور الحوانيت ، كل منها يعرض نفس السلعة ، والتنافس قائم ، لكن تكمن وراءه ما يمكن أن نسميه فلسفة يومية مستمدة من الدين الاسلامى ، « الارزاق على الله » ، فلكل تاجر رزقه

وزبائنه ، ولا يزال هذا التقسيم قائما حتى يومنا هذا فنجد أسواقا متخصصة ، الحمزاوى الذى يعـــرض التوابل والعطارة ، والفحامين الذى تتجاور فيه متاجر الاحـذية ، والتمبكشية (تجار الدخان والتمبـاك) ، والخرنفش (تجار الخيش والـكهنة القديمة) وتحت الربع (الادوات المنزلية) والموسكى (الثياب والادوات المنزلية والدرب الجديد (الحقائب والمصنوعات الجلدية) وسوق الرويعى (ماكينات الخياطة ولوازم الحياكة) وسور الازبكية (الكتب القديمة) والصنادقية (الكتب الازهرية) ، والصاغة (الذهب والمجوهرات) والنحاسين (النحاس والالمنيوم) ، (وأدوات المقاهى من نرجيلات واكواب وفناجين) ، ودرب سعادة (الاخشاب) والخردة والمنسوجات الشعبية (وكالة البلح) . والتحفوالهدايا (خان الخليلى) . بل ان السلع غير المشروعة تجد مناطق متخصصة فى بيعها مع ان الحكومة تحاربها وتطـارد المتجرين فيها ، وهذا يبدو فى منطقة الباطنية التى تتركز فيها تجارة المخدرات ، واذا ما انتقلنـــــا الى المدينة العصرية جدا ، أو وسط البلد كما يسمونه اليوم ، فنجد ان الحوانيت المتشابهة التى تتجاور ، عشرات المتاجر التى تبيع الاحذية فى شارع قصر النيل متجاورة ، أو الملابس الحديثة ، أو الالات العصرية ، ان وحدة المكان الذى تعرض فيه السلعة ، ظاهرة فريدة فى الاســواق العربية ، انه ليس انعكاسا لقانون تجارى خفى ، بقدر ما هو تجسيد لاسلوب فى الحياة ورؤية ، ان هذا يسـهل على المشترى قضاء حاجته ، كمـــا انه يشبه معرضا

مستمرا لسلعة بعينها ، يمكن للمشترى أن يقارن ، وان ينتقى ، وان يختار ، ثم يشترى ..

ونعود الى القاهرة التى وصفها المقريزى .

الاسواق القديمة

بعد سوق القصاصين يجىء سوق المرحلين ، ويختص بلوازم الجمال عند الرحيل ، كان يقصد من سائر انحاء مصر خصوصا فى مواسم الحج ، فلو اراد الانسان تجهيز مائة جمل فى يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه ، وقد بدا خراب هذا السوق فى زمن السلطان برقوق ، ولم يبق له أثر الآن ، ومكانه الآن شارع السيارج ، أما سوق حارة برجوان فكان يعرف فى أيام الخلفاء الفاطميين بسوق أمير الجيوش ، كان معمور الجانبين بعدة وافرة من باعة اللحم ، والزياتين ، والجبانين ، والخبازين ، والعطارين ، وقد خرب هذا السوق بعد سنة ٦٠١ هـ ، وهذا السوق الآن موضعه تجار أقمشة . واذا ما تقدمنا حتى مسجد الاقمر سنجد سوق الشماعين ، حيث تباع الشموع الضخمة التى تحمل فى المواكب ، وكانت حوانيته تظل مفتوحة حتى منتصف الليل ، ويجلس بها بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين ، لهن زى خاص ، وكانت تعلق بهذا السوق الفوانيس فى المواسم فتصير رؤيته فى الليل من أنزه الاشياء ، وكان به شمع يصل وزن الواحد منه الى قنطار كامل ، وشموع تحمل على عجلات ، وفى زماننا انتقلت دكاكين بيع الشموع الى الامام فنجد عددا منها يقع بالقرب من الغورية وشارع الازهر ، وتباع فيها الآن الشموع التى تحمل فى

حفلات الزفاف ، والشموع التى تضىء فوانيس رمضان ، وتباع أيضا قلل السبوع التى تضيئها الشموع عند الاحتفال بمرور اسبوع على ميلاد البنات ، و «الاباريق» اذا كان المولود ذكرا . على أية حال فقدت الشموع موقعها وتراجعت أمام الكهرباء .

وكان سوق الدجاجين يلى سوق الشماعين ، وفيه الدجاج والاوز ، والطيور المتنوعة ، وكان تباع فيه عصافير محبوسة يشتريها الاغنياء ليعتقوها ، وموقع هذا السوق اليوم مجموعة مبان متهالكة ، وموقع لبعض الباعة الذين يحولون الزيتون الاخضر الى أسود . أما عن أعتاق الطيور الحبيسة فعادة توارت : ويجهلها الزمن الحالى الذى كثر فيه اغتيال العصافير ، وذبح الاسراب المهاجرة بمجرد ان تلامس صدورها الساخنة بر الانسان ، وكان خط بين القصرين من أعمر مناطق القاهرة ، وفى أيام الدولة الايوبية صار هذا الموقع سوقا ، وقعد فيه الباعة بأصناف المأكولات من اللحوم المتنوعة ، ثم صار متنزها تمر فيه أعيان الناس لرؤية ما تشتهى الانفس ، ثم أصبح هنا سوق السلاح ، وقد نقل فيما بعد الى موضع يقع بالقرب من القلعة ، ولا يزال الاسم عالقا بالمكان حتى اليوم ، وبجواره نجد الحرفيين يجلسون الى تخوت صغيرة وأمامهم أقفاص صغار من حديد مزخرف تحتوى على الخواتم والفصوص والاساور، ثم سوق الحلوى ، وسوق المهاميز ، ثم سوق السروجيين، ثم تجار المنسوجات المستوردة من الصين وفارس والهند ، وبجوار الازهر سوق الشرابشيين ، ويباع فيه الخلع التى يلبسها السلطان للأمراء ، والوزراء والقضاة

وغيرهم ، ومثل الكلوتات اليلبغاوية ، والكلوتات الزركشى، وسمى سوق الشرابشيين نسبة الى الشرابيش ، وأحدها شربوش ، وهو يشبه التاج كأنه شكل مثلث على الرأس بدون عمامة ، وقد بطل فى عصر الدولة الجركسية ، كما ان هذا السوق لا يوجد له أثر الآن ، وفوق بعض أجزائه تقع منشآت السلطان الغورى .

ثم سوق الحلاويين ، وكان يمتد الى سوق الشوائيين، وكان معدا لبيع منتجات الحلوى من تماثيل تسمى علاليق ، وأحدها علاقة ، وكان بعضها يزن من عشرة أرطال ، الى ربع رطل ، وربما كان هذا السوق أصل الاسم الذى أطلق فيما بعد على حارة السكرية التى تدور فيها أحداث ثلاثية أديبنا الكبير نجيب محفوظ .

وفى سوق مجاور تتصاعد أنغام موسيقية من آلات لا تزال تحت التجربة ، انها حوانيت صناعة العود والقيثارة ، وكانت هذه الحوانيت ملتقى أيضاً لمن يهوون الفن والموسيقى أو أرباب المجون والخلاعة بلغة عصرهم، ولا يزال حتى الآن بعض الحوانيت التى تصنع الآلات الموسيقية تقع بالقرب من هذا المكان المجاور لشارع محمد على المعروف بأنه مقر الفرق الفنية التى تحيى الافراح .

بجوار باب النصر ، فى القرن الرابع عشر ، كان يوجد سوق العبيد الذى نقل فيما بعد الى خان الخليلى ، هنا كان يعرض الرجال والنساء للبيع ، كان البشر يعرضون عراة فيما عدا قطعا رقيقة من القماش تستر عوراتهم ، ويتقدم المشترون لفحص اعضاء الاجسام ، ونجد هذا

المشـــــهد فى « ألف ليلة وليلة » ، حيث ينادى تاجر الرقيق ..

يا سـيد ، ليس كل ما اسـتدار جوزة ، ولا كل ما استطال موزة .

ولا كل ما احمر لحمة ، ولا كل سمراء تمرة .
ثم يبدأ المزاد على الآلام البشرية .

يذكر المقريزى ثمانية وثلاثين سوقا كانت موزعة على قصبة القاهرة ، بعض هذه الاسـواق زال واندثر بـكل ما حفل به من ضجيج ، ومرور بشر ، ونظرات متلاقية فى اناة ، وأخرى فى حذر ، بكل ما مر به من رجال تتبعوا نساء جميلات ، أو بصاصين تعقبوا بشرا من هنا أو هناك ، مثل سوق المرحلين ، والشماعين ، والدجاجين ، والقفيصات ، وباب الزهومة ، والخوخيين ، والحريريين ، الخلعيين ، وغيرهم .

وبعض الاسواق الاخرى انتقـل مع حركة الزمن فى المكان فابتعد من موقعه ولم يعد يحمل الا الاسم ، كسوق السلاح ، وثمة أسواق أخرى لا تزال فى موقعها تقاوم عناصر البلى ، والعدم ، كسوق الصاغة ، وفى القاهرة الآن أسواق لا تزال محتفظة بالشكل القديم ، مثـل سوق الخيامية المسقوف من خشب ويكثر به صناع الخيام التى تنصب منها السرادقات ، وان كان عددهم قد تناقص الآن الى أقل من ثلاثين صانعا ، وبالطبع هنا خان الخليلى والحمزاوى ، والتربيعة .

كيف كانت تبدو هذه الاسواق فى العصور الخـوالى للرحالة أو الاجانب المقيمين والزائرين ؟

الحوانيت

هذه الاسواق كانت تتكون من الدكاكين المتجاورة ، يصفها المستشرق الانجليزى ادوارد لين :

« يتكون الدكان من كوة مربعة الشكل ، أوحجرة صغيرة ارتفاعها ستة أقدام أو سبعة تقريبا ، وعرضها ثلاثة أقدام أو أربعة ، وقد يتألف الدكان من حجرتين تتقدم الواحدة الاخرى وتستعمل الاخيرة مخزنا ويقـــام امام الدكان مصطبة بالحجر أو الآجر يستوى سطحها بأرضية الدكان، وترتفع المصطبة عادة حـــوالى قدمين ونصف أو ثلاثة أقدام ويكون عرضها كارتفـاعها ، وتجهز واجهة الدكان بمصاريع ثلاثة سهلة الطى يعلو بعضها بعضا فيثنى اعلاها الى فوق ، ويطوى الآخران الى أســـفل فوق المصطبة فتكون مقعدا مستويا يفرش بالحصر أو البســط أو بالوسائد أحيانا ، وتستبدل بعض الدكاكين بالمصـاريع السابق ذكرها أبوابا منثنية ويجلس التاجر غالبـا على المصطبة ، ما لم يضطر الى الانسحاب قليلا داخل الدكان ليخلى المكان لمن يصـعد اليه من حرفائه الذين يخلعون أحذيتهم قبل أن يطأوا الحصيرة أو البساط بأقـدامهم ويقدم التاجر الشبك الى حرفائه الدائمين ، أو من يشترى بضاعة كثيرة ، الا اذا كان هؤلاء يحملون شبكهم ، ثم يرسل الى أقرب مقهى فى طلب القهــوة التى تقدم فى فناجين صغيرة من الخزف الصينى داخـــل ظرف من النحاس الاحمر (١) » .

بعض الدكاكين فى الاسواق القـــديمة لا تزال على

(١) المصريون المحدثون ص ٢٢٧ ــ ٢٧٨ : ترجمة عدلى طاهر نور .

خالها ، لم يغير منها الزمن ، ربما كانت بعض المآذن قد تغيرت ، فلم يعد ممكنا ان يترك التاجر دكانه مفتوحا فى وقت ذهابه للصلاة أو الغذاء لان الامان ليس هو الامان الذى كان فى عصر أدوارد لين ، ولا تزال الاسواق العربية فى بغداد والبصرة والموصل تحتفظ بهذه الدكاكين المفتوحة ، وعندما يمضى التاجر لقضاء حاجة يمد قطعة من القماش تعلن عدم وجوده ، مع الزمن ، وتوالى الايام، وانعدام الثقة ، وكثرة الخلق ، لم يعد مفتوحا ، انما حلت الفاترينة المغلقة التى يعرض فيها التاجر بضاعته والحاجز الخشبى بينه وبين الزمان .

غير ان الحياة الجماعية للسوق ربما لا تزال تحتفظ بخصائص قديمة ، فالتجار يرسلون وقت الغذاء الى مطاعم منتشرة فى الاسواق يحضرون منها غذاءهم ، كما يوجد عدد من المقاهى الكبيرة أو باعة الشاى يجولون بعد وقت الغذاء وعلى امتداد النهار ، أما باعة الحلوى فيجيئون أيضا فى الميعاد المناسب ، وفى وسط السوق يروح ويجيء الباعة المتجولون الذين لا يملكون دكاكين ثابتة لبضاعتهم ، وهؤلاء ينادون على بضاعتهم .

فيصيح بائع الترمس « مدد ، مدد يا امبابى » ويعنى بهذا القول أما الاستعانة بالشيخ الامبابى وهو ولى مشهور، وأما الاشارة الى أن ترمس امبابة لذيذ الطعم ،ويصيح بائع الليمون « الله يهونها يا ليمون » وكثيرا ما ينادى على اللب ، « لب عبد اللاوى » يابطيخ ، « يا مسلى الغلبان يا لب » ، أو « اللب المحمص » أما بائع الجميز فيقول « جميز يا عنب » ، ويستعمل بائع الورد نداءا فريدا « الورد كله شوك من عرق النبى فتح » .

وكانت الأسواق تخضع لمراقبة المحتسب ، وكان يجوس من حين الى آخر خلال المدينة يتقدمه عامل يحمل الميزان والصنج ، وخلفه الجلادون والخدم ، وهو يمر على الدكاكين والاسواق واحدا بعد الاخر يفحص الموازين والمكاييل ، ويستفسر عن ثمن المأكولات ، ويتأكد من نظافتها ، واذا اكتشف مخالفة ينزل العقاب بمرتكبها وتذكر كتب التاريخ عقوبات فريدة أنزلها المحتسب بالغشاشين ، كهذا الرجل الذى كان يبيع الكنافة ناقصة الوزن ، فأمر المحتسب بجلوسه عارى المؤخرة فوق صينية الكنافة الساخنة ، وأحيانا كان المحتسب يقطع جزءا من الاذن أو الانف ، وكان هناك فى بداية القرن التاسع عشر محتسب اسمه مصطفى الكاشف مشهورا بقسوته ، وفى مرة قابل رجلا مسنا يقود حمارا محملا بالبطيخ ، فأشار الى واحدة من أكبرها حجما وسأل عن ثمنها ، فأمسك العجوز بشحمة اذنه وقال : اقطعها يا سيدى ، فأعاد عليه المحتسب السؤال مرة بعد مرة ، وكان الجواب واحدا ، فاغتاظ المحتسب ، لكنه لم يتمالك ان ضحك وقال ، هل أنت مجنون أم أصم ؟ فقال العجوز : لا ، لست مجنونا ولا أصما لكننى أعرف اننى ان قلت ثمن البطيخة عشرة فضة فستقول ، اقطع اذنه ، واذا قلت خمسة فضة أو فضة واحدة فستقول اقطع اذنه لذلك اختصرت الامر . ونجا الرجل لتهكمه . .

لكن هل كان ذلك يعنى ان العدالة مطلقة ؟ يقال انه كان يسعى بين أيدى بعض المحتسبين رجل يحمل ميزانا اكبر حجما من الميزان المستعمل ، ويقال ان قب الميزان كان انبوبة مجوفة بها زئبق ، فكان حامل الميزان يستطيع

اذا عرف الذين رشوا سيده ان يرجح احـدى الـكفتين بسهولة .

صورة شاملة

واذا كان ادوارد لين قد قدم لنا صورة مفصلة للاسواق فى القرن التاسع عشر ، فان الرحالة أبو الحسن الوزان الفاسى ، المعروف باسم ليون الافريقى والذى زار مصر القرن السادس عشر يقدم لنا صورة شاملة :

« تمتلىء المدينة « القاهرة » بالصناع والتجـــار ، ويكثرون بصفة خاصة فى شارع يمتد بين باب النصر ، وباب زويلة ، فهنا يقيم أكثر نبلاء القاهرة ، ويوجد فى هذا الطريق عدد من المدارس التى تثير الاعجاب بسبب حجمها وزخرفتها ، ويضم أحد الاحياء ، وهو الـذى يسمى بين القصرين محلات تبيع اللحم المطهـو ، ويبلغ عددها ستين محلا ، مزودة بأطباق من الصفيح ، وفى محلات أخرى يباع ماء الزهر ، وماء الورد ، وهـو يحفظ فى قنان من الزجاج أو فى علب من الصفيح مزينة برسوم فنية ، وهناك حوانيت أخرى تختص ببيع أنواع ممتازة من الحلوى تختلف عن تلك التى تباع عادة فى أوروبا . وهناك نوعان من هذه الحلوى ، نوع يصنع من العسل وآخر يصنع من السكر ، ويأتى بعد ذلك تجار الفاكهة الذين يبيعون الفواكه السورية التى لا تنمو فى مصر ، مثل الـكمثرى ، والسـفرجل والرمان ويتخلل هـذه الحوانيت محال أخرى تبيع المقليات من البيض والجبن ، وعلى مقربة منها منطقـة يشغلها بعض أصحاب الحرف الرفيعة ، وبعد توجد المدرسة الجديدة التى بناها السلطان

الفورى ، وبعد المدرسة توجد «فنادق» المنسوجات (أى أسواقها) وكل فندق يشتمل على عدد كبير من الحوانيت، ففى الفندق الأول ، تباع الاقمشة الاجنبية من أحسن الانواع مثل تلك التى تأتى من بعلبك ، وهى نسيج قطن رفيع ، والمنسوجات التى تأتى من الموصـــل ، وهى التى حازت اعجاب الناس بسبب رقتها ومتانتها ويستخدمها عليـــة القوم ورؤساؤهم لقمصانهم وبعد ذلك تأتى الفنادق التى تباع فيها أجمل الاقمشة الايطالية مثل الحرير الدمقس والمخمل والتفتاه والبروكار . وأؤكد لك بأننى لم أر مثيلا لها فى ايطاليا حيث صنعت » .

ويقول متعجبا عند حديثه عن تجار الروائح العطرية ان هذه المنتجات كانت متوافرة بحيث اذا أراد الزبون ان يشترى درهم مسك عرض عليه التاجر مائة رطل لينتقى ويختار ، وكثيرا ما كانت تلك الاسواق تشهد مناسبات غريبة ، فاذا ما حدث وانتج أحد الصناع عملا جميلا ، كان يرتدى رداء من الحرير ويطاف به بين الحوانيت بصحبة الموسيقيين فيما يشبه موكب النصر ، وقد شهد ليون الافريقى موكبا لرجل صنع سلسلة لبرغوث احتفظ به مقيدا على قطعة من الورق . كما رأى أحد أعمـــال القوة العظيمة التى قام بها أحد السقائين الذين يسيرون فى الشوارع حاملين قربا من الجلد تتدلى من أعناقهم ، فقد تراهن مع شخص آخر أن يحمل قربة مملوءة بالماء تشد اليه بسلسلة من الحديد ، وفعلا استمر هذا الرجل طيلة سبع أيام متتابعة من الصباح الى المساء يحمل هذه القربة التى علقت بسلسلة على كتفه العارى ففاز بالرهان، وحاز شرف موكب نصر عظيم تصحبه الموسيقى وجميع

السقايين فى القـــــاهرة الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف سقاء .

الوكالات

الوكالة وحدة تعتبر سوقا فى حد ذاتها ، ويمكن أن نعتبرها فندقا أيضا ، فالوكالة عبارة عن بناء كبير مربع الشكل فى معظم الاحيان أو مستطيل ، يتكون من عدة طوابق ، الطابق الاسفل يتكون من مخازن متجـــــاورة تستعمل كدكاكين لعرض البضاعة أيضا ، وفوق الحوانيت حجرات صغيرة تستخدم كمساكن للتجار الغرباء الذين قطعوا ساعات طويلة عبر بلاد متعددة لعرض بضاعتهم فى القاهرة ولعل أشـــهر وكالة بقيت حتى الآن هى وكالة الغورى التى أعيد ترميمها وتتبع وزارة الثقافةحاليا،ويقيم بها عدد من الفنانين الذين يستخدمون حجراتها كمراسم، كما توجد بها بعض الاقسام الفنية التى ترعى العـدد القليل المتبقى من الصناعة المنقرضة ، كصــناعة خشب الخرط ، وتعشيق الزجاج بالجبس ، والتطعيم ، وفى بداية القرن التاسع عشر كان يوجد فى مصر أكثــر من مائتى وكالة ، معظمها أزيل الآن ، ولكن هنا وكالات قديمة جاء ذكرها فى خطط المقريزى ، مثل وكالة الصـــــابون المجاورة لبـــاب النصر ، والتى ذكرها تحت اسم خان قوصون ، ووكالة بازرعة بالجمالية ، ووكالة القطن ، وكل وكالة لها باب واحد يقفل ليلا ويحرسه بواب .

لقد ولت أسواق القاهرة القديمة والتى كانت تعكس فى تصميمها أسلوب حياتها قيما وعادات لم تعد موجودة

الآن ، واذا كانت الاصالة لا تزال تتشبث ببعض أركان المدينة القديمة ، فاننا نجد فيها بقايا عتيقة تحاول الثبات فى وجه رياح التغيير والنيون والبوتيكات ، وذلك الطوفان النابع من كل أرجاء الدنيا .

مسجد المؤيد

اذا ذهبت الى شارع الغورية ، مشيت فيه ، وقبل ان تقترب من نهـايته ، ستطالعك مئذنتين رشيقتين ؛ تقومان فى الفراغ ، لا تعلوان فوق مسجد ، انما فوق باب زويلة أحد أبواب القاهرة القديمة ، ومحافظة القاهرة تتخذ من الباب والمئذنتين شعارا .

تبدو المئذنتان رشيقتان ، كأنهما حارسان غامضان على الماضى البعيد ، وكنوزه .. كأنهما ترقبان المارة من تحت البوابة ، والرجال والنساء ، والاطفال ، ترصدان ما جرى وما حدث خلال ما يقرب من خمسمائة وستين سنة عمر تواجدهما هنا .

هاتان المئذنتان تنتميان الى مســـــجد المؤيد شيخ المحمودى ، الذى يقع بجوار باب زويلة ، وربمـا تبدو المئذنتان والمسجد ، وما رآه من أحداث عندئذ ستدب الحياة فى الحجارة ، ستنطق ذرات التراب ، وتقطر دما .. اذن لنبدأ الرحيل ، مع تاريخ واحد من اجمـــل المساجد ..

« حدث فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، ان وقعت فتنة كبيرة فى القاهرة بين الممـاليك ، وكانت

الفتن كثيرة الحدوث وقتئذ ، تعودها الناس ، فلا يخلو شهر من تمرد بعض المماليك فى القلعة ، ونزولهم الى الاسواق يخطفون ما بها من أطعمة وبضائع وثياب ، وعمائم الناس ، وأحيانا كانوا يخطفون النساء والغلمان ، ليفعلوا بهم الفاحشة ، كل هذا لاثارة الاضطراب والذعر .

ولكن فتنة الامير منطاش كانت من الفتن الكبيرة فى عصر السلطان الناصر برقوق ، وقد ذكرها مؤرخو العصر كعلامة بارزة أمثال المقريزى ، وابن اياس ، وابن تغرى بردى ، وابن حجر .

المهم ان الامير منطاش قبض خلال هذه الفتنة على العديد من المماليك التابعين للسلطان الظاهر برقوق ، وكان بين هؤلاء المماليك واحد يقال له شيخ المحمودى .

كان شيخ المحمودى وقتئذ رجلا ناضجا ، جاء الى مصر وعمره اثنا عشر عاما ، وعرضه تاجر الرقيق على الامراء فلم يشتروه لان التاجر طلب ثمنا غاليا فيه ، ولانه جميل الصورة ، هادىء الطباع ، اشتراه الخواجا محمود شاه البزدداری تاجر المماليك ، ولان التاجر تعامل مع تاجر ، فكان الثمن الذى دفعه الخواجا محمود يسيرا ، ثم قدمه هدية الى الامير برقوق قبل أن يتسلطن ، وبرغم هذا استمر ينسب الى الخواجا (المحمودى) ، اذ أن المماليك كانوا ينسبون لاسيادهم .

نتابع المملوك شيخ المحمودى ، فنراه يتدرج فى التعليم ، القراءة والفقه والفروسية ، واللعب بالرمح ، ورمى النشاب ، والضرب بالسيف والمصارعة ، واتقن هذا

كله ، حتى أصبح أميرا على عشرة مماليك ، وعنـــدما وقعت فتنة منطاش أمسكه وقيده فى الحديد ، وأرسله الى واحد من أبشع سجون مصر وقتئذ ..

سجن شمائل

لنقف قليلا تحت بوابة زويلة ، يمتد سور الجامع المرتفع بحذاء البوابة ، فى اتجاه باب الخلق ، حتى ليبدو وكأنه جزء من سور القاهرة القديم ، بينما يمتد ضلعه الشرقى مطلا على شارع الغورية ، حيث بوابة المسجد .

هنا ، فوق هذه الارض التى يقوم فيها المسجد ، كانت توجد بعض مبان عتيقة ، أهمها سجن قديم ، اسمه « خزانة شمائل » .

الى هذا السجن الفظيع دفع بالامير شيخ المحمودى ، وضعوه فى أحدى الحفر القذرة ، قيدوا يديه وساقيه وعنقه بسلاسل حديدية مثبتة فى الحائط ، وكان الظلام كثيفا ، والروائح كريهة ، وربمـــا تأمل شيخ فى حالة المماليك وقتئذ ، لا يأمن واحد منهم على نفسه ، مهما علا قدره ، ومهما تولى من المناصب ، فى لحظة ، فى اغماضة عين ، ربما تقطع رقبته ، أو يلقى فى السجون .

ربما فكر فى أمور من هذه ، لكن تفكيره لم يستمر طويلا ، والسبب يذكره لنا المقريزى ..

« فى السجن قاسى الامير شيخ المحمودى من البق والبراغيث شدائد ، فنذر لله تعالى ان تيسر له ملك مصر ان يجعل مكان هذه البقعة مسجدا لله عز وجل ، ومدرسة لاهل العلم » .

ولم يمض الكثير ، حتى فشلت فتنة الامير منطاش (أو مؤامرة بلغة عصرنا) ، وخرج الامير شيخ محمودى، تقلب فى مناصب عديدة ، كما قاسى محنـــا وشدائد استغرقت من عمره وقتا ، ولكنه بالتأكيد لم ينس نذره الذى تعهد به ، وهو ان يجعل مكان السجن الرهيب مسجدا .

السلطنة

محدثنا الآن ، هو المؤرخ المصري الفنـــان العظيم ، الشيخ أبو البركات محمـــد أحمـــد ابن اياس الحنفى المصرى ، لنستمع اليه ، الى ما يجرى فى عام ٨١٥ هجرية (١٤١٢ ميلادية) .

« فى يوم الاثنين ، أول شـــعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة ، تولى الامير شيخ المحمودى الملك بالمقعد الذى بباب السلسلة ، فكان أول من بايعه من العلماء جلال الدين البلقيني ثم قدمت اليه خلعة السلطنة ، وهى جبة سوداء مطرزة ، وعمامة سوداء وتلقب بالملك المؤيد » .

وفى بداية عهده ، وقعت عدة اضطرابات ، اذ أن مصر شهدت وقتئذ طاعونا جارفا ، من أشد الطواعين التى رأتها مصر حتى هذا التاريخ كان الناس يتساقطون فى الطرقات ، حتى ان الواحد قبل خروجه من بيته كان يكتب اسمه على ذراعه ، ليعـــرفه الناس اذا مات فى الطريق ، حتى الطيور فى السماء ، والحيوانات أدركهـــا الطاعون ، ولم يكن الطـــاعون غريبا عن الناس فى هـــذا العصر ، كان اجدادنا يقاسون منه كل عام تقريبا ، حتى

صارت له مواعيد فى الظهور ، ووقت معين يبلغ فيه حدة لا حدة بعدها .

وعندما اشتد أمر هذا الطاعون ، خرج السلطان المؤيد شيخ الى الصحراء خارج القاهرة ، وصلى عارى الرأس فوق الرمال ، وانحنى باكيا ، متضرعا الى الله كى يزيل الغمة والوباء عن الناس ، وقدم قربانا ..

مشهد رهيب ، وصفه لنا ابن اياس ، يرسم لنا صورة مؤثرة للعجز الانسانى فى مواجهة الكوارث التى يحار فى فهم أسبابها وعلاجها أيضا صورة لسلوك الراعى المسئول عن رعيته هذا السلطان المملوكى الذى يخرج الى الصحراء ، ويمرغ نفسه فى التراب ، ليزيل الله الآلام عن شعبه .. وتسجل كتب التاريخ العديدة من الاعمال التى تتسم بالرحمة والتى قام بها المؤيد شيخ .

المسجد

بعد ثلاث سنوات من تولى المؤيد سلطنة مصر ، شرع فى بناء مسجده الكبير ، فبدأ بهدم سجن شمائل ، وبعض المبانى المجاورة له ، وهنا يجب رصد ملحوظة هامة ، وهى أقدام كل حاكم مصرى على تشييد بناء معمارى ضخم ينسب اليه ، لا يقتصر الامر على سلاطين المماليك الذين شيد كل منهم مسجدا ، يتراوح فى حجمه وفخامته تبعا لطبيعة حكم السلطان ، من حيث استقراره فى الحكم مدة طويلة ، وحالة البلاد وشخصيته ، الا يذكرنا هذا بفراعنة مصر العظام ، عندما كان الفرعون يقدم على تشييد بناء معمارى ضخم ، يقهر به الفناء

ويضمن الخلود ، سواء كان البناء هرما مدرجا ، أو هرما اكبر ، أو معبدا ضخما ، أو بهو أعمدة فى معبد أو لوحات فنية دقيقة تنقش فى الصخر أو مسلات تقتطع من بطن الجبل ، خاصة اذا لاحظنا ان الاهرامات فى حقيقتها مقابر ضخمة ، أبنية حجرية شـــيدها الانسان المصرى ليقهر الفناء بالمادة .

والمساجد التى أقامها

والمساجد التى أقامها سلاطين المماليك وأمراؤهم تضم مقابرهم أيضا ، وعندما تدخل من الباب الرئيسى لمسجد المؤيد ، تطالعنا تربته الرخامية قبل وصولنا الى الايوان الرئيسى للجامع ، وبجواره تربة ابنه ابراهيم وفى الجهة القبلية غرفة أخرى للدفن ، بها زوجة السلطان وابنته ، وكأن الداخل الى المسجد انما يجسد الموت ، وبدخوله الايوان تبدو له الحياة رحبة ، فسيحة ، مشبعة بالضوء والخضرة ، وكأنه الفرج بعد الضيق ، أو الحياة بعد الموت .

وفوق مدفن السلطان المؤيد تقوم قبة حجرية شاهقة العلو ، تنتصب الجدران فى شموخ رهيب ، غامض ، كأن السلطان المؤيد يغالب الفناء ، يوجد لنفسه موقعا فى عصور تلت عصره ، تلاشى قبل أن يلحق بها .

هنا ، تحت هذه القبة الشاهقة ، حيث المادة ، حيث الروح والجسد ، كل ما ينطق به الاعجاز المعمارى ، هنا تبدو قدرة مصر على فرض مضامينها الروحية ، حتى على الاجانب الذين يحكموها ، انضموا

الى جانب المصرى فى صراعه الابدى القديم ضد الفناء ، ومحاولته ان يضمن الخلود .

ولان الحاكم قدراته أكبر ، امكانياته أوسع . فقد لجأ الى كافة ما يمكنه لتحقيق ما يهدف اليه ، وهذا ما فعله السلطان المؤيد شيخ .

المسجد الحرام

يقول ابن اياس :

« فلما بنى السلطان هذا الجامع حصل للناس بسببه غاية الضرر .. » .

صورة غريبة يقدمهـــا لنا ابن اياس ، اذ كان المؤيد يقصد بناء بيت من بيوت الله ، تشييد مسجد فلماذا يحدث الضرر بالنسبة للناس ، لقد كان الاسلوب المملوكى فى الحكم المتسم بالتعسف والظلم ، يتسرب الى اعمال الخير أيضا .

كان بناء المسجد يحتاج الى كمية كبيرة من الرخام ، لهذا صار والى القاهرة يهاجم بيوت الناس ويخلع منها الرخام غصـــبا ، وهنـا لنـدع ابن اياس مرة أخرى يتحدث ...

« وصار المؤيد يكبس الحارات التى بها بيوت المباشرين، وأعيان الناس بسبب الرخام وكان التاج والى القاهرة يهجم على الناس فى بيوتها ، ومعه المرخمون (عمـــال الرخام) فيقلع رخام الناس طوعا أو كرها ، واخرب دورا كثيرة ، وجعل باب السلطان حسن الذى خلعه ، وجعله على باب جامعه ، وأخذ التنور الكبير النحـاس

« النجفة » منها أيضـــا ، ودفع فى البـاب والتنور خمسمائة دينار .

فكان ما قيل فى المعنى :

بنى جامعـــا لله من غير جله
فجاء بحمـــد الله غير موفق
كمطعمة الايتـام من كـد فرجهـا
فليتك لا تزنى ولا تتصـــدق »

سيدى ابراهيم

فى ربيع الآخر ، عام ٨٢٣ هجرية ..

طلع أحد الموظفين الكبار الى السلطان ، وأخبره ان الامراء يرغبون فى اقامة ابنه ابراهيم سـلطانا بدلا منه ، بعد ان حقق انتصـارات كبيرة على بعض المتمردين فى الشام واقترح على مؤيد شيخ ان يتخلص من ابنه ، وفعلا قام السلطان بدس السم له فى الحلوى ، وكان السم من النوع البطىء ، فبدأ المرض يحل بابن السلطان، وعندما اشتد به ندم مؤيد شيخ على ما فعله ، ولكن السهم نفذ ، اذ اشتد النزع بابراهيم ، ومات فى ليلته الخامسة عشر من جمادى الآخرة ، فى نفس السنة .

يقول ابن اياس :

« أخرجت جنازته من القلعة ، ومشت قدامه الامراء ، وأرباب الدولة ، من القلعة الى الجامع الذى انشـأه والده ، ودفن داخل القبة التى به ، وقام الخطيب فوق المنبر ، وخطب خطبة بليغة ، ثم روى الحديث الشريف

عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، لما مات ولده ابراهيم عليه السلام فقال :

« ان العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول الا مايرضى ربنا ، واننا بفراقك يا ابراهيم لمحزنون » ، فلما سمع السلطان ذلك ، وضع منديله على وجهه وبكى ..

بكى السلطان مؤيد الشيخ ..
وبكى الناس على ابراهيم ابنه ..

رقد ابراهيم فى تربته ، تحت القبة التى لابد أن تجتازها قبل دخول الجامع ، وفى نفس السنة مات السلطان ، ودفن الى جوار ابنه .. والآن نقف أمام مدفنيهما ، مدفن السلطان المحاط بسور خشبى ، ومدفن ابراهيم الاصغر منه حجما ، قتل الاب ابنه حتى لا يلى الحكم بعده ، وجمعتهما هذه الرقدة الابدية .. والآن ... لندخل الجامع ..

الايوان الكبير

.. يفاجئنا الاتساع الرحب ، والفضاء الوديع الذى يملأ فراغ المسجد من الداخل .. نحن الآن تحت الايوان الشرقى ، تقوم حولنا أعمدة الرخام الجميلة التى تحمل سقفا مزدحما بأبدع النقوش الاسلامية .. كان للجامع أربعة ايوانات تحيط بالصحن كلها تخربت ،امتدت اليها يد الفناء ، ولم يبق الا هذا الايوان الشرقى ، الايوان تغمره الزخارف من الارض حتى السقف ، الجدران محلاة بالخزف ، والكتابة تغطى السقف .

نقف أمام المحراب ، الرخام يكسوه تماما قطع صغيرة

متعددة الالوان وبجوار المحراب منبر خشبى طعم بالعاج والصدف ، الايوان لا يبهر بمجرد عظمة المعمارة فيه ، العمارة هنا لا تحدث أثرا فى النفس ، انه الرهبة ، الخشوع ، العمارة هنا تجبرك على قبول دعوة للتأمل ؛ من خارج الشبابيك تأتى أصوات الفورية ، كأنها تمر بعدة مرشحات عازلة قبل أن تصل الى أذنيك ؛ وعندما تسمعها هنا ، عندئذ تنتمى هذه الاصوات الى العصر الذى شيد فيه المسجد ، يساعد على هذا ان هذه الاصوات بالتأكيد لم تتغير كثيرا عما كان الامر عليه وقت بناء المسجد ، فالعربات والمركبات الآلية لا تمر من شارع الفورية الا نادرا ..

نخرج من الايوان الشرقى ، ليس الى الخارج ، ولكن الى وسط المسجد ، حيث تطالعنا حديقة ، خضرتها غريبة ، وتلقى الحديقة هنا ظلالا مهيبة على طبيعة المكان ، تجعل للرهبة بعدا آخر ..

السكر

وفى صحن المسجد ، نرى فسقية من الرخام بنيت لتكون ميضأة ، نقترب منها ونحن نذكر حديث مؤرخنا العظيم ابن اياس بعد انتهاء عمارة مسجد المؤيد :

« ثم ان السلطان نزل الى هناك وأقام الى بعد العصر وامر السلطان ان تملأ الفسقية التى فى صحن الجامع سكرا ، فملئت ، ووقف الامراء يفرقون السكر على الناس بالطاسات » .

نذكر هنا ونحن نرى احد الرجال يتعرى ، ويجلس

القرفصاء ليتبول فى الميضأة ، وآخر يغسل تحت احدى « الحنفيات » طبقا به بقايا أطعمة ، واذا مددنا النظر فسنلمح بالارضية بقايا ونفايا قذرة .

أحقا ملئت هذه الفسقية يوما ما بالسكر وشرب منها الناس ؟

مسجد الحاكم بأمر الله

« ... الآن ، يوجد فى القاهرة القديمة مسجد كبير ، فسيح ، بطلت منه شعائر الصلاة منذ قرون ، وصلنا من العصر الفاطمى ، وكما لاقى صاحبه ظلمـــا فادحا من المؤرخين ، فانه يعانى الآن وحدة وهوانا لا مثيل له ، فأعمدته متهدمة ومئذنتاه النادرتان تسكنهما الوطاويط ، وفوق قسم منه أقيم بناء قبيح لمدرســـة ابتدائية ، مدرسة السلحدار الابتدائية ، وفوق قسم آخر مخزن ، غير ان المسجد الفسيح يحتفظ بهيبة غامضة تتسق مع سيرة صاحبه التى يلفها نفس الغموض والهيبـــة ، ان أطلاله القديمة تضم بين ثناياها أسرار هذا العهد البعيد المثير .

قبل الموت

سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) بدأ الخليفـــة العزيز بالله الفاطمى فى انشاء مسجد خارج أسوار القاهرة ، لكنه لم يتم فى عهد هذا الخليفة ، توفى عام ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) ، وكان عمر الحاكم وقتئذ أحد عشر عاما ، يقول المؤرخ ابن خلكان ان الحاكم بأمر الله قال لجليسه وصنيعه المؤرخ « المسبحى » الذى روى عنه ...

« استدعاني والدي قبل موته ، وعليه الخرق والضماد. فاستدناني ، اليه ، وقبلني ، وضمني اليه وقال : واغمي عليك يا حبيب قلبي ، ودمعت عينـــاه ثم قال : امض يا سيدي والعب فأنا في عافية ، قال الحاكم : فمضيت والتهيت بما يلتهي به الصبيان من اللعب انى ان نقل الله سبحانه وتعالى العزيز اليه ، فبادر إلى برجوان وانا فى أعلى جميزة كانت في الدار ، فقـال برجـوان « انزل ، ويحك ، الله فينا وفيك » فنزلت ، فوضع العمـــامة بالجوهر علي راسي وقبل لي الارض وقال « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .. ولان الحاكم بأمر الله كان صغير السن ، فقد طمعت القوى السياسيه الموجودة وقتئذ في السيطرة عليه ، وكان الصراع محتدما بين طائفتي المشارقة ، والمغاربة ، وفى وسط هذا الواقع المضطرب كان هناك خصي أبيض اسمه (برجوان) احد الخدم البيض الذين جلبوا من أوروبا ليعملوا فى القصور الاســـلامية ، تدرج (برجوان) حتى وصل الى منصب استاذ ، ثم عمل على ازاحة منافسيه ، وكان سياسيا موهوبا فبدأ يستميل اليه العـواطف المتنازعة ، وفعـلا تمت له السيطرة على مقــاليد الامور أصبح يدير دفة الامور في الدولة ، وتجاهل الخليفة صغير السن ، لم يقم له أي اعتبار ، ثم بدأ يغرق فى اللذات ، غرق فى الملاهى ، والمتع ، ولانه كان مهيمنا على كل شيء فقـد أصبحت الفوضى تعم كل شيء ، ويبدو ان اغراء الحكم ، والاغراق في الملاهى ، قد حجبا عن عيني « برجوان » ملامح شخصية الحاكم بأمر الله ، هذا الفتى الطويل ، المتسع العينين ، صاحب النظرات النفاذة ، الذى يميل دائما الى التأمل ، فى هذه الفترة كان الحاكم قد تجاوز

مرحلة الصبا ، بدأ يدخل مرحلة شبابه ، ولانه خارق الذكاء ، جاد فى تناوله للأمور ، لم يغب عنه أمر مايحدث، لكنه كتم ما يراه ،لم يفصح لاحد ، ولم يشك ، قرر أن يعمل فى صمت ، أن يتخلص من هذا الداهيــة الذى يسيطر على الامور ، ويقودها نحو خراب شامل ، اذن لابد ان يتخلص من برجوان . غير ان الدافع لديه لم يكن سياسيا محضا ، أو بهدف سـيطرته على مقاليد الدولة ، لقد كانت أهـــدافه أعم وأشمل ، وهذا يبدو بوضوح فى الخطوات العملية التى بدأ فى تنفيذها بعد تمكنه من السلطة فى تلك الفترة كان عقله يضج بالمثل ، كان يحلم باقامة عالم خال من المظالم ، خال من المجاعات، من الاوبئة ، عالم تتحقق فيه العدالة ، عالم يذوب فيه المحكوم فى الحاكم ، ان الواقع حوله يضج بكل مايستنفر روحه الطموحة الى عالم مثالى يقوم فوق أرض الواقع ، وهو ليس حاكما عاديا ، انه خليفة ، وامام المؤمنين ، ومرتبة الامامة عند الفاطميين تجعل الخليفة من الناحية التأويلية فى مستوى أعلى من مستوى غيره من البشر ، لان الائمةهم حجج الله على خلقه وهم الداعون الى توحيد الله تعالى وتنزيهه .

خطة التخلص

لا شك اذن ان الامام او الخليفة الفاطمى يتمتع بموقع استثنائى بالنسبة لبقية البشر ، اذن ليحاول من خلال موقعه هذا وما ينفرد به من سلطات وهيبة وحصانة ان يقيم عالمه المثالى . لكن تبقى عدة عقبات ، منها ضرورة

سيطرته على جهاز الحكم حوله ، ثم الوسيلة الى خلق هذا العالم المثالى ؟

لكن كيف وهو بلا حول أو قوة ؟

بتأن شديد وضع خطة محكمة للتخلص من «برجوان» . استدعى أحد رجاله المخلصين ، زيدان صاحب المظلمة ، اى من يحمل المظلمة فوق جواد الخليفة فى المواكب ، التقى به فى البستان الكافورى المطل على النيل ، وكان البستان متصـــلا بالقصر عن طريق سرداب يمتد تحت الارض ، فى ذلك البستان رتب كل شىء .. وفى يوم آخر ذهب الى البستان ومعه برجوان فى هذه المرة ، لقد اعتاد برجوان مصاحبته أثناء تفقده لبعض المنشآت الجديدة ، طافا بين الاشجار ، تأملا الخضرة ، تحدثا ، فجأة .. ظهر زيدان ، تقدم مقبلا يد برجوان ، فى نفس الوقت يتحسس ملابسه خوفا من ان يكون مرتديا درعا حديديا ، تأكد ان برجوان لا يلبس شيئا ، بسرعة . طرحه ارضا ، قتل برجوان . وبسرعة بدا الحاكم يتحرك بذكاء.

« وبكر الناس الى القصر فوقفوا بالباب ، ونزل القائد أبو عبد الله الحسن بن جوهر القائد وحده الى القصر واذن للناس ، فدخلوا الى الحضرة ، وخرج الحاكم على فرس اشقر ، فوقف فى صحن القصر قائما ، وزيدان يمينه وأبو القاسم الفارقى عن يساره ، والناس قيام بين يديه ، فقال لهم بنفسه من غير واسطة : ان برجوان عبدى استخدمته فنصح فأحسنت اليه ، ثم أساء فى أشياء عملها فقتلته ، وأنتم عندى الآن أفضل مما كنتم فيه مما تقدم .

ثم أصدر سجلا الى سائر أهالى مصر ، تلى بعد صلاة الجمعـــــة يوم ٢٧ من ربيع الآخر سـنة ٢٩٠ (٦ ابريل سنة ١٠٠٠ م) . تلى السجل من فوق منبر المسجد ، مسجد الحاكم بأمر الله الذى كان فى بداية عمره الطويل يقوم خارج أسوار القـــاهرة ، فى سقفه تتلألأ مئات القناديل ، ومن مئذنتيه اللتين شيدتا على نمط منـار الاسكندرية الذى كان سليما لم يتهدم بعد يدوى صوت اثنين وخمسين مؤذنا فى أوقات الصلاة .

من فوق المنبر نصح الناس بالعودة الى أعمالهم ، وقال انه منذ الآن سيباشر كل شىء بنفسه ، وان بابه مفتوح أمام الناس كلهم ، لقد بدأ الحاكم خطواته العملية نحـو تحقيق العـــالم الذى يطمح اليه ، فى الشهور الخمسة التالية لمقتل برجوان تخلص من الاتباع الاقـوياء الـذين كانوا يمثلون ضغطا عليه ، أصبح قابضا على مقـاليد الامور بيد من حديد ، لنر اذن ما سيفعله ، ما الذى قام به من أجل خلق عالم حلو ، رائع ، بلا أوجاع ، وهنا يجب أن نلاحظ عدة اعتبارات ، منها طموح الحاكم بأمر الله ، وظروف عصره ، وسبقه للواقع المحيط به ، ثم الوسائل التى اتبعها والتى كانت تبدو حينا متسقة مع زمنه ، وفى أحيان أخرى تبدو غير مفهومة لانها تسبقه .

نحو عالم مثالى

ـ ١ ـ

.. يخرج الحاكم بأمر الله راكبا حماره ، يتجه الى المسجد الذى لا زالت بعض الاعمال التكميلية تجرى فيه،

ان موكبه يلفت النظر ، لا تحيطه اى مظـــــاهر للابهة والفخامة التى تعود أهل القـــــاهرة رؤيتها عند خروج الخلفاء الفاطميين انه يمشي بدون حرس ، ووراءه غـلام اسمه مفلح يحمل الدواة والسـيف والورق فى كيس معلق فى كتفه وهو يمشي وراءه ، يكتب ما يتقدم به الناس من شكاوى ، كان الحاكم يقف أمام الدكاكين ، والبيوت ، يتحدث مع الناس ، وخلال ذلك يحل بعض المشاكل ، ينصف بعض من ظلموا ، وكانت الناس تجرؤ على الاقتراب منه ، والوقوف بين يديه .

ـ ٢ ـ

يأمر بتعطيل المطابخ الضخمة ، والكف عن الانفاق على الاطعمة الفاخرة .

يبدأ الناس فى الانتباه الى هذه الشـــــخصية غير العادية .

ـ ٣ ـ

.. الحاكم بأمر الله يستدعى أحد القضاة . لقـد سمع عنه أمرا عجيبا ، انه يلبس طرطورا ركب فيه قرنين من قرون البقر ، يضعه الى جواره لاخافة الناس ، ويسأله الحاكم :

« ما هذا الامر الذى ابتدعته ؟ »

ويقول القاضى :

« يا أمير المؤمنين ، اشتهى أن تحضر مجلسى يوما وأنت من خلف ستارة لتنظر ماذا أقاسى من الناس ، وان كنت معذورا فيهم ، والا .. فعاقبنى بما تختار .. » .

ويذهب الحاكم بأمر الله الى مجلس القاضى ، ويشاهد ما يقاسيه فى سبيل اخذ الحق لمستحقيه ، فاقره على ما يفعله ، وكاد أن يلبس القرنين لينطح بهمـا أحد المذنبين .

ان الحاكم بأمر الله يتابع جميع قضاته ، كان مهموما بتحقيق العدالة . ورمى بثقله لتحقيق هذا الهدف ، وكأنه يود لو أنصف هو جميع المظلومين .

— ٤ —

ها هو يجلس فى وقت معين يعرفه الناس عند أحد ابواب القصر ، يجىء المتظلم ، يقف صائحا ، لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، يأمر عندئذ باحضاره ، يصغى الى شكواه ، يأمر بتحقيق عاجل .

ملامح شخصية

— ١ —

القامة مديدة ، كمـا تصفها لنا مصادر التاريخ ، العينان واسعتان ، براقتان مشعتان ، أقـوى القلوب لا تجرؤ على الصمود طويلا أمامهمـا ، الصوت جهورى عميق ، يميل الى التأمل ، كان يحب أن يمشى بمفرده ، يصعد الى جبل المقطم ، وبالقرب من حلوان يقـوم بناء شيده خصيصا ليرصد منه النجوم والكواكب ، ربما كان فى نفس الوضع الذى يقوم فيه الآن مرصـد حلوان المشهور ، انه ملم بعلم النجوم ، فى هذا الوضع يحتجب أياما كثيرة عن أهل مملكته ، لا يحضر مجالس الجدل ،

له سعى فى اظهـــــار كلمته ، فى عهده خطب له فى خراسان .

انه يحب العلماء ، ويقربهم ، وما كان يؤرقه فى ذلك العصر حدوث المجاعات ، بمجرد انخفاض ماء النيل عن معدله عند الوفاء تختفى الغلال ، تقل مساحة الارض المزروعة فيقاسى الناس شدائد عظيمة ، انه مهموم بوضع حد للمجاعات ، حدثوه عن شخص من العراق اسمه : أبو على الحسن بن الهيثم ، قالوا له انه نابغ فى فن الهندسة ، وانه قال ، لو كنت فى مصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة أو نقص ، فأرسل اليه الحاكم أموالا ، ودعاه الى مصر ، فلما وصل خرج اليه بنفسه وأكرمه وسيره مع جماعة من الصناع ، وصلوا حتى أسوان ، لكن ابن الهيثم يبدو انه لم يستطع تحقيق ما فكر فيه ، لم تساعده امكانيات عصره على تحقيق مشروعه ، هل فكر ابن الهيثم فى اقامة سد عال يعترض مجرى النهر وينظم توزيع مياه النهر ؟ ربما ، خاصة وان الخزانات والسدود لم تكن غريبة على مصر ، انها معروفة منذ أيام الفراعنة ، لكن يبدو أن ابن الهيثم أراد تحقيق عمل ضخم لم تســـاعده الامكانيات المتاحة على اتمامه ، ولم يضايقه الحاكم بأمر الله ، انما أبقاه فى مصر مكرما ، انه يتخذ فى نفس الوقت اجراءات عديدة لتخفيف الواقع الاقتصـــادى على رعاياه ، يلغى العـــديد من الضرائب التى فرضت منذ عهـــد الولاة العباسيين ، وعندما تقع المجاعة يبذل جهـــدا خارقا لتثبيت أسعار العملات المتداولة ، ثم يقيم سعرا لكل شيء بنفسه ، وفى احدى المرات التى اختفى فيهـــا

القمح ، ركب حماره متوجها الى المسجد ، وقبل تحركه خطوة قال (أنا ماض الى الجامع . فأقسم بالله لئن عدت فوجدت فى الطريق موضعا يطأه حمارى مكشوفا من الفلة لاضربن رقبة كل من يقال لى ان عنده شيئا منها ولاسرقن داره .. وانهبن ماله) .

فى عودته كانت الفلال تملأ الاسواق .

كان المنصور ابو على الحـــــاكم بأمر الله ، عادلا ، متسامحا ، عالما ، صبورا ، ولكن التاريخ الذى يكتبه السادة لم يحتفظ له بصورته الحقيقية ، تماما كما فعل مع على بن محمد صاحب الزنج ، وكل من انحاز الى جانب العدالة والناس ، كانت اجراءات الحاكم بأمر الله من أجل تحقيق عالم مثالى تهدد مصالح السادة . وهذا ما أدى الى قتله ، ولكن مسيرته ظلت تؤرقهم على مر العصور ، فقلبوا وشوهوا وسخروا .

من هنا ارى انه لا حقيقة فى التاريخ ، الواقعة تفسر من أكثر من زاوية ، الحقيقة نسبية ، سيرة الشخص لا تصل للعصور آلتالية كما هى ، يخضعها كل مؤرخ لتصور خاص ، تتدخل فى تقديره المصلحة والعقيدة ، وسيرة الحاكم مثال حى على ذلك .

لكن ما هى الاجراءآت التى اتخذها الحاكم بأمر الله وسخر منها التاريخ ؟ لنلق نظرة على كل منها ، والظروف التى أدت اليه .

لماذا الاوامر ؟

« يمنع الحاكم بأمر الله أكل الملوخية والجرجير ،

والقرع ، والمتوكلية ، وأم الخلول ، والترمس العفن ، كما يأمر بقتل الخنازير ، ويمنع عجين الدقيق بالرجل » .

من الواضح أن سبب منع معظم هذه الاطعمة صحى بحت ، فكثير منها كان يتسبب عنها أضرار صحية بالغة، خاصة اذا راعينا الحالة الصحية وقتئذ وتفشى الاوبئة ، ويقول بعض المؤرخين أن منع الملوخيـــة والمتوكلية كان بسبب حب معاوية لهما ، ومعاوية خصم آل البيت ، وخصم الفاطميين .

أمر « ٢ »

« تمنع زراعة الكروم »

اراد الحـاكم بأمر الله تحريم شرب الخمر ، وكانت منتشرة جدا فى ذلك الوقت بسبب حالة الرخاء الاقتصادى التى حدثت بعد الفتح الفاطمى لمصر ، كمـا أن الدين الدين الاسلامى ينهى عن الخمر .

أمر « ٣ »

« يمنع الحاكم بأمر الله صناعة النعال الحريمى ، ومنع النساء من الخـــروج ليلا ، ومنعهن من كشف وجوههن وراء الجنـــائز والخروج الى حلقات الرقص خارج المدينة » .

استمر منع النساء من سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) حتى خلافة الظاهر عام ٤١١ هـ (١٠٢٠ م) اى انهن قضين سبع سنوات محبوسات ، وكان الدافع لاتخـاذ هـذه الاجراءات أخلاقيا ، ومحاربة الفساد من أجل الحفاظ على التقاليد الدينية ، من ناحية أخرى اتخذ الحاكم بأمر الله عدة اجراءات أخرى ، منها انشاء دار لاموال اليتامى، لا يدفع من مال اليتيم الا اذا حضر أربعـــة من ثقات

القضاة ، وأمر بقتل الكلاب ، فقتل منها ما لا يحصى حتى لم يبق منها بالازقة والشوارع شيء ، وطرحت بالصحراء وشاطيء النيل ، وأمر بكنس الازقة والشوارع وأبواب الدور فى كل مكان ، وتلك اجراءات صحية ، وفى ربيع الاول سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) أمر باضاءة القناديل فى الليل بسائر الحوارى والازقة بالقاهرة ، وهنا نجد بعض المؤرخين يفسرون هذا الاجراء الذى يستهدف الحفاظ على الامن بأن الحاكم امر بقلب النهار الى ليل ، والليل الى نهار ، لقد أثرت الرواية التاريخية المفرضة فى وجدان الشعب ، فنجد بعض الروايات المتوارثة فى القاهرة القديمة تقول أن الحاكم بأمر الله قلب الليل الى نهار ، وانه ركب بعد شروق الشمس (أى غروبها طبقا للنظام الجديد) ليرى هل يلتزم الناس بأوامره ، والنوم نهارا (باعتباره ليلا) وفعلا .. وجد الطرقات خالية ، والدكاكين مغلقة ، لكن اسكافيا عجوزا كان لا يزال يعمل ، وفى الضوء النهارى اشعل مصباحا صغيرا ، اقترب منه الحاكم متسائلا عن السبب فى مخالفته الاوامر ، فرفع الرجل اليه عينين ضعيفتين وقال :

- أصلى سهران بعض الوقت !!

استخدام الشدة

فى أواخر عصر الحاكم ، ظهر بمصر عدد من الدعاة ، بدأوا ينشرون تعاليم غريبة . مؤداها اعتبار المنصور أبو على الحاكم بأمر الله فوق مستوى البشر ، وكان

أحدهم وهو محمد بن أسماعيل الذى لقب بالدرزى يؤمن بالتجسيم والحلول ، فروح آدم تجسدت عليا رضى الله عنه ، وهذه أنتقلت الى الحاكم بأمر الله ومن قبله أبيه وجده ، دعا الناس الى عبادة الحاكم ، واستطاع الدرزى نشر دعوته بين عدد من الاتباع بلغ عددهم حوالى ستة عشر ألفا ، لقد طرد هؤلاء من مصر ، واستقروا بالشام حيث يعيشون الى يومنا هذا فى انتظار عودة الحاكم بأمر الله ، وهم الدروز .. وبالتأكيد ، لم يصلنا نص واحد ينسب الى الحاكم انه أدعى الالوهيـــــة ، وتلك مسألة شائكة ، تدخلت فيهـــــا عوامل عديدة ، اذ أن الدعاة أصحاب هذه الفكرة معظمهم من أصل فارسى ، حيث الايمان قوى بتناسخ الارواح والحلول ، الى جانب فكرة المهدى المنتظر ، ونزول المسيح فى آخر الزمان ، ربمـا وجد هؤلاء فيما يقوم به الحاكم وفى شخصيته المثالية أرضا خصبة لافكارهم ، غير ان الحاكم انزعج من هذه الدعوة ، حتى إنه استخدم الشدة وقتـل دعاته الذين غالوا فى آرائهم ولم يدفعوا عنه ما قيل عنه ، وفى مرحلة معينة أحس بفداحة الخطر الذى تمثله هذه الدعوة على جهوده من أجل العدل والطمأنينة بين البشر ، فاعتزل الدنيا كلها ، كان يجلس فى مكان مظلم لا يدخل عليه احد ، أو يخرج هائما على وجهه فى الصـحراء ، أو يصعد الى جبل المقطم يستغيث بالله ، ويناجى ربه ، وهنا نرى الحاكم زاهدا فى الدنيا ، لا يحلق شعره ، أظافره طويلة ، لا يغير رداءه الا كل مدة ، وبرغم ذهوله عن الدنيا ، وضيقه بما يجرى ، لم تفتر عزيمته فى

محاربة الذين يحاولون تشويه مسيرته ، وظل يحارب حملة هذه الدعوة حتى يوم خروجه الاخير الى المقطم ..

المشهد الاخير

اليوم ، ثلاثاء ، ١٣ فبراير سنة ١٠٢١ م سنة ٤١١ هـ ، الليلة يخرج الحاكم بأمر الله من باب القصر الشرقى الكبير ، ركب حماره ، متوجها الى خارج القاهرة ، المدينة هادئة ، وثمة غموض فى الجو ، ويبدو ان أم الحاكم أحست بما سيقع ، تعلقت به قبل خروجه ، رجته بحرارة أن يبقى ، ألحت عليه ، لكنه أصر على الخروج .

أمام باب القصر ، وقف جماعة ينتظرونه كل ليلة ، يصاحبونه فى سيره ، واذ يقترب من الجبل يعودون ، يستمر بمفرده ، أثناء مشيه ربما اعترضه بعض الرعايا ، يقدمون له الشكاوى ، يقف الواحد منهم على يمينه ، يشرح له متاعبه ، يصغى الحاكم ، ان ذاكرته قوية تستوعب ما يسمعه ، اذ يعود الى القصر يعمل على حل هذه المشاكل ويطلب من الاهالى انتظاره فى الليلة التالية بنفس الموضع حتى يخبرهم بما اتخذ من قرارات .

الليلة ظلامها كثيف ، النجوم كثيرة فى السماء ، عند بداية الجبل عاد مرافقوه ، وأوغل الحاكم فى الدروب المهجورة .

يقال انه نظر طويلا الى السماء ، ثم صاح « ظهرت يا مشئوم » ..

ومنذ هذه اللحظة لم تقع عليه عين بشر حتى الآن ، لم يعثر له على جثة ، وازداد الموقف غموضا .

.. وعنـــدما نقف الآن في صحن المسجد الفسيح المتهدم ، تهيمن علينـــا مسيرة الحاكم بأمر الله ، كأنه يرقبنا من مكان خفى ، لقد صلى هنا ، ومشى هنا ، ومن امام هـــذا المسجد سار الى الجبل قبـــل غيبته ، والى المسجد يجيء بعض الناس من الهند بين فترة وأخرى ، من بقايا الفاطميين هناك ، يحجون الى مسجد الخليفة الفاطمي ، ان الاعمدة تقاوم جاهدة البلى ، نلمح الاعياء فوق جدرانه ، والخراب حول مئذنتيه ، يجول بالذهن خاطر ، هل يعود الحاكم يوما ليعمر هذه الاطلال .. وليسأل نفسه ، كيف تحول هذا المسجد الفخم الى تلك الاطلال ..

ما جرى للمسجد

عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) :

بدر الجمالي أمير الجيوش والوزير الفـــاطمي يجدد اسوار القاهرة ، أصبح مسجد الحاكم داخل الاسوار ، التصق الجدار الشرقي منه . بالسور في المنطقة التى تقع بين باب الفتوح وباب النصر .

عام ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) :

يقع زلزال خطير بالقاهرة ، يخرب المئذنتين ، ينتدب السلطان الناصر محمد ، « الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير » فنزل الى المسجد ، وكشف بنفسه ، وأمر

بردم ما تهدم منه ، واعادة ما سقط من البدنات ، فأعيدت وفى كل بدنة منهـا طاق وأقام سقوف الجامع وبيضه حتى عاد جديدا ، وبالمسجد نقش كتابى جاء فيه « وكان الفراغ فى شهر ذى الحجة سنة ثلاث وسبعمائة » .

عام ٨٦٠ هـ (١٣٥٨ م) :

يجدد المسجد فى عهـد الملك الناصر حسن ، ويبيض مئذنته أحد الباعة ويعرف بابن كرسون .

عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) :

يقوم السيد عمر مكرم نقيب الاشراف بتجديد أربع بوائك من مؤخرة المسجد ويجعلها بيتا للصلاة .

ثم يستخدم المسجد لاغراض مختلفة ، اتخذ مقرا لحامية أثناء الحملة الفرنسية ، ثم مقرا لبعض الشوام الذين أقاموا فيه مغازل ومصانع لصناعة الزجاج اليدوى ونسيج الحرير ، وفى عام ١٨٨٠ استخدم متحفا للآثار العربية ، ثم أقيمت فوق جانب منه مدرسة السلحدار الاعدادية ..

والآن لنلقى نظرة من أعلى ..

المئذنتان

ربما يمثل كل حجر فيهما حدثا تجمـــد من العصر البعيد ، تدركنا رهبة اذ ندخل المئذنة الشمالية من باب صغير فوق سور القـــاهرة القديم ، السلم حلزونى

متسع ، فـــوق درجاته نقوش فاطمية تآكلت ، تدور السلالم حول جسم اسطوانى ضخم من الحجر . تفجع الاذن بأصوات غريبة تلوث ضوء النهار ، تنال من رهبة المكان ، انهـــا الوطاويط ، لا تخرج فى النهار ، وفى السماء تنتقل أسرابها الى أشجار النبق القديمة فى فناء الجامع . وتطير الى الشرفة الرئيسية ببيت السحيمى الاثرى القريب .

أعلى المئذنتين ..

تشعر بالعلو الشاهق ، تبدو المئذنة البحرية ، القاعدة المربعة ، يعلوها بناء مربع آخر يميل ميلا خفيفا ، يذكرنا هذا بوصف الرحالة عبد اللطيف البغـــدادى لمنارة الاسكندرية عام (١٢٠٠ م) ، لا شك ان المنارة كانت تشكل منبع الوحى الذى استوحاه المهندسون المصريون عند بناء المئذنتين ، انهما أقـدم مئذنتين قائمتين على حالهما القديمة فى العمارة الاسلامية فى مصر ، نلاحظ فوقهما بنائين غريبين عن الطراز الاصلى للمئذنتين ، انها الاضافات التى قام بها الامير بيبرس الجاشنكير عام ٧٠٣ هـ بعد أن هدمها الزلزال ، لكن ما بناه يبدو نشازا، لم يراع الطراز الاصلى للبناء ، أكمله ببناء من زمنه هو ، الآن تعانى المئذنتان اهمـالا وهوانا ، والوطاويط تلوث احشاءهما ، والكتابة الكوفية الجميلة التى تحيط بهمـا مهددة بالتآكل والضياع ، من أعلى تبدو أطلال المسجد ، تبعث على الرثاء ، وكأن الحاكم يرقبنا ، ويرقب نظرات الاسى فى عيوننا على ما تبقى منه ، لقد جاهد طويلا ليمحو

الظلم ، وسعى فى الارض ليقيم العدالة ، ثم غاب فى غموض غريب ، وحملت الرواية التاريخية مسئولية دماءه لاخته ست الملك التى قيل انها قتلته . غير انه لم يتبق منه كحقيقة مادية ملموسة ، ومن جهوده كلها الا .. هذه الاطلال ..

مآذن القـاهـرة

تتعدد وجوه القاهرة بتعدد المراحل التى عاشتها تلك المدينة منـذ عصورها الاولى . وحيثما ذهبت تستطيع أن ترى للقاهرة وجها مختلف الملامح والقسمات ، وربما عالما له شخصيته المميزة . وهذه نظرة الى القاهرة من خلال مآذنها العديدة والعريقة .

* تنفرد مدينة القاهرة بوجـود مجموعة كبيرة من المآذن . تمت الى عصور مختلفة ، فى كل منهـــا خصائص العصر الذى بنيت فيه ، وملامحه ، قـد تبدو المآذن مجموعة من المبانى النحيلة الرشيقة التى تشهق لتسد الفراغ اذا نظرنا اليها بمعزل عن الظروف ، لـكن عندما نتوغل الى الزمن الذى بنيت فيه سنجد ان الحياة قد دبت فى الحجارة الرمادية الصماء ، وسنجد أمامنا « أرشيفا » حيا ، للعمارة الاسلامية والمئذنة لم تولد مع المسجد ، بل أنشئت فى فترة متأخرة قليـلا كضرورة تقتضيها الحاجة ، يؤكد البخـارى ان المسلمين عنـدما هاجروا الى المدينة كانوا يجتمعون « فيتحينون للصلاة ، ليس ينادى لها ، فتكلموا يوما فى هذا ، فقال بعضهم : اتخذوا ناقوسا مثل ناقـوس النصارى ، وقال بعضهم

بل بوقا مثل قرن اليهود ، فقال عمر أولا تبعثون رجلا منكم ينادى بالصلاة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يا بلال قم فنادى للصلاة .. » وكانت المساجد الاولى تخلو من المآذن ، كمسجد الكوفة (١٧ هـ — ٦٣٨ م) ، والمسجد الجامع بالبصرة (١٦ هـ — ٦٣٧ م) وكان مسجد عمرو بن العاص خاليا من أى مئذنة ، وكان الناقوس مستخدما فيه لدعوة الناس الى الصلاة حتى سنة (٥٣ هـ — ٦٧٣ م) وفى البداية أطلقت كلمة (صومعة) أو (منارة) على المآذن ، وكانت كلمة صومعة تطلق فى الاصل على صوامع الرهبان المسيحيين ، وهى بناء مربع يعلو عن الارض وعندما زار الرحالة ابن جبير دمشق وصف ثلاث صوامع بالمسجد الاموى ، « كالبرج المشيد » ، وما تزال كلمة صومعة مستعملة فى شمال أفريقيا حتى وقتنا هذا ، وربما كان ذلك لان شكل المآذن لا يزال محتفظا هناك بصورته المربعة الاولى . اما لفظ « منارة » فهو يعنى المكان الذى ينبعث منه النور أو الضوء ، وهذا يعنى ان المئذنة كانت تستخدم فى وقت ما لاغراض أخرى غير الآذان ، كارسال الاشارات الى السفن ، أو ارشاد التائهين فى الصحراء ، اما كلمة مئذنة فمشتقة من لفظ (الآذان) .

اقدم المآذن

تقول كتب التاريخ ان أحمد بن طولون كان رجلا جادا، لا يضيع جزءا من وقته فى العبث أو اللهو ، وفى احد

الايام ، كان يجلس مع بعض رجال دولته ، وكان الحديث حول المسجد الجديد الذى أزمع بناءه فى مدينته الجديدة التى اختطها « القطائع » ساد صمت ، أطرق ابن طولون، وراح يلف ورقـــة حول اصبعه ، انتبه فجأة الى انهم ضبطوه فى لحظة عبث . أراد أن يبرهن لهم انه كان منصرفا الى عمل نافع يتدبره ، فثبت الورقة على وضعها حول اصبعه ، وقال بسرعة ..

« اعملوا لى مئذنة على هيئة هذا المخروط .. » .

ربما تبدو هذه القصة مقنعة لتفسير هـــذا الشكل الفريب لمئذنة ابن طولون ، أقدم مآذن القاهرة ، لكن لو عرفنا ان ابن طولون قضى أول حياته فى مدينة سامراء العراقية ، قبل أن يفد الى مصر . واذا لاحظنا مئذنة جامع سامراء القائمة فى الزيادة الشمالية للمســـجد (تماما كمئذنة ابن طولون) التى لا تتصل بسائر مبنى المسجد ، تبدو كأنها منفصلة عنه ، ولا ترتبط به الا بواسطة قنطرة محمولة على عقدين متجاورين . وكلتـــا المئذنتين تتكون من قاعدة مربعة تقوم عليها ســـاق اسطوانية يلف حولها من الخارج سلم دائرى عرضه حوالى ٩٠ سنتيمترا له سور دائرى أيضا ، هناك اذن تشابه بين مئذنة ابن طولون ومئذنة جامع سامراء ، وقد زرت كلا المئذنتين ، ولا شك ان كلا منهما توحى بالاخرى ، خاصة عند صعود السلم الدائرى ، والوصول الى قمة اى منهما . الفرق ان سلم ملوية سامراء غير مسور اما سلم مئذنة ابن طولون فيحف به سور منخفض . ولا شك ان مئذنة ســـامراء كانت ماثلة فى ذهن ابن طولون .

والمئذنة التى نراها اليوم بنيت فى زمنين مختلفين . نصفها الاسفل المربع ، والجزء الاسطوانى من البناء الاصلى . أما الجزء العلوى المكون من طابقين فقد أضافهما السلطان لاجين عام (١٢٩٦ م) . ويقال انه فعل ذلك نتيجة لنذر قطعه على نفسه عندما كان مطاردا، واختبأ فى المسجد قبل اعتلائه كرسى السلطنة وكانت المئذنة وقتئذ مهدمة . تطل برثاء على المسجد الفسيح الساكن ، والذى عبر كل الاعاصير والتقلبات ووصل الى زماننا سالما ..

الحاكم

بالقرب من نهاية شارع المعز لدين الله ، قبل وصولنا الى بوابة الفتوح ، أحد أبواب القاهرة القديمة السبع يمتلىء الجو برائحة سوق الليمون والزيتون الاخضر ويسد الطريق أمامنا سور القاهرة القديم . تبدو سلالم الحصن الذى كان يطوق القاهرة ، كذلك أماكن وقوف الجند ، ومزاغل المراقبة ، فى الفراغ تعلو مئذنتا الحاكم بأمر الله ، وتحتهما يمتد أكبر مسجد فى مصر ، وأكثر المساجد اهمالا ورثاثة . فوق جزء من فنائه يستقر بناء كالنشاز يضم مدرسة السلحدار الاعدادية . ثم اطلال وخرائب . وبرغم مظهر الاهمال فان المكان يعبق برائحة تاريخ قوى لم يول بعد ، تاريخ الحاكم بأمر الله ، تلك الشخصية الفذة التى أثارت جدلا لم يهدأ بعد ، ترتفع جدران المئذنتين من الارض ، كل منهما تبدأ بقاعدة

مربعة ضخمة تميل جدرانها ميلا خفيفـــا مما يذكرنا بالاهرامات المربعات ما هما الا معطفان من الحجر ، كل منهما يحيط احدى المئذنتين الاصليتين . يرتفع المعطف الغربى ٢٤ مترا فوق أرض الشارع . ويتكون من جزئين أولهما يبلغ ارتفاعه ١١ مترا . والطابق الثانى يرتفع ١٤ مترا ، أما المعطف الشمالى فيزداد ارتفاع الطابق الاول فيه مترين . وهكذا يبلغ ارتفاعه ٢٦ مترا . الا يذكرنا شكل المعطفين الحجـــريين بذلك الوصف الذى دونه عبد اللطيف البغدادى لمنارة الاسكندرية ، تلك الجدران المائلة . ربما تأثر المهندس الذى أشرف على بنائهما بشكل المنـــارة التى كانت قائمة فى ذلك العهد ولم يهدمهـــا الزلزال بعد ، ربمـــــا كان قد تأثر بشكل الاهرامات المصرية ، هنا نرصـــد التميز الذى بدأ فى بناء المآذن المصرية والذى سيستمر تطوره حتى تكتمل كافة عناصره فى عصر السلطنة المملوكية . ندخل الى المئذنة الشمالية من باب صغير يعلو سور القاهرة القديم الذى بناه بدر الجمالى وأخفى أحد أضلاع هذه المئذنة .

المئذنة من الداخل تتكون من قاعدة مربعـــة وجسم اسطوانى ، وعندما ندخل الى المئذنة من فوق السور فاننا نصبح محاذين للجزء الاســـطوانى ، سلم المئذنة يدور حوله ، فوق الجدران الخارجية للمئذنة نرى زخارف، ونوافذ تحيط بها اطارات زخرفية تتكون من وحدات هندسية مجـــردة ، ووحدات زخرفية أساسها ورق النبات ، وفوق السلالم التى تصعد بنا الى أعلى نلمح زخارف ورقية ، مما يوحى لنا بمدى الجهد الذى بذله

المنمنمون والمزخرفون فى تزيين المسجد ، أثناء صعودنا تفجع آذاننا بأصوات نحيلة ، حادة منبعثة من داخل المئذنة ، انها الوطاويط ، تعشعش فى الداخل ، تنهش جوف المئذنة ، وتلوث بأصواتها السكون النهارى الجليل الذى توحى به سيرة الحاكم صاحب المكان ويقال انها ضخمة الحجم الواحد منها فى زنة الارنب ، نصل الى سطح المئذنة ، نصبح بجوار الجزء العلوى ، انه يتنافر مع بقية البناء ، لا يمت اليه بأية صلة معمارية ، ولا عجب فقد بنى فى فترة متأخرة ، بالتحديد فى زمن بيبرس الجاشنكير أحد أمراء المماليك .

حدث فى سنة ١٣٠٣ زلزال عنيف هدم منارة الاسكندرية ، وهدم الجزء العلوى من مئذنتى الحاكم بأمر الله ، وقام الامير بيبرس الجاشنكير باضافة هذين الجزئين ، ينتصب القسم العلوى هنا من أربعة طوابق مثمنة . تحيط بالثلاثة العليا منها صفوف من المقرنصات . وتعلوها قبة المئذنة على شكل مبخرة ، انه نفس شكل المئذنة التي تعلو مسجد بيبرس الجاشنكير والذى يقع فى مواجهة حارة الدرب الاصفر بالجمالية ، ويعرف هنا باسم زاوية بيبرس حيث كان يقيم الصوفية والفقراء يرددون الأذكار والاشعار ، فى الزمن النائى البعيد ، لكن البناء الاصلى ، فوق مسجد بيبرس يبدو متسقا ، اما هنا فوق مئذنتى الحاكم فانه غريب عن البناء الاصلى ، لانه من عصر مختلف ، واذا تجاور زمنان مختلفان تنافرا ، واختلفا . يبلغ ارتفاع هذا القسم سبعة عشر مترا ، أى أن البناء يرتفع عن سطح الارض ٤٦ مترا .

وفوق جبل المقطم ، بالقرب من مركز السماء تقوم مئذنة الجيوشي (٤٧٢ هـ ــ ١٠٨٥ م) فى الشتاء تبدو من خلال الضباب معلقة فى فراغ الكون ، وقد اختفى الجبل الذى تقوم اليه فى بحر من اللبن الهائش ، تبدو المئذنة وكأنها دعاء تجمد فى طريقه الى أعلى ، أو ابتهال غامض خفى ، أو رغبة من المعبود فى الوصول الى الخالق، انها ثانى المآذن التى وصلتنا من العصر الفاطمى ، لقد اختفت مئذنة جامع الاقمـــــر ، وكان قد بناها الوزير البطائحى فى سنة ١١٢٥ ، أما المئذنة الوحيـــدة التى وصلتنا من القرن الثانى عشر ، فهى مئذنة مسجد ابى الغضنفر ، وتصور مئذنة الجيوشى مرحلة من تطـور المئـــــذنة المصرية . فى اعلاها تلمح عنصرا هاما من المقرنصات فى صورتهـا الاولى . والافريز الادنى يشتمل على صف من العقود ، وتلك هى المرة الاولى التى تبدو فيها هذه الظاهرة فى عمائر القاهرة . انها أقدم مئذنة فى ذلك الطراز المعـــروف باسم المبخرة ، وهو طراز استمر مستخدما حتى الربع الثـــانى من القرن الرابع عشر .

هكذا تتضح معالم المآذن المصرية الاولى . برج مربع ينتهى بشرفة وفوقه طابق آخر مربع ، كما يبدو فى مئذنة الجيوشى . لقد اختفى هذا الطابق فيما بعد ، واستبدل بطابق مثمن فى مئذنة ابى الغضنفر ، فتحت فيه تجاويف مضلعة الرءوس . وارتفعت فوقه رقبـة مثمنة الاضلاع تعلوها خوذة مضلعة ، وتلك التى عرفت باسم المبخرة ..

الباب الاخضر

بجوار الباب الاخضر لمسجد سيدنا وامامنا الحسين عليه السلام فى القاهرة شق ضيق فى هذا الجدار القديم المتبقى من البناء الاصلى .

تقول الاسطورة « ان رأس الحسين طارت من كربلاء الى هذا الموضع لمدة أربعين يوما تسبح بحمد الله ، وعندما استقرت هنا رست بجوار سيدة عجوز ، أخفت الرأس ، جاء جند يزيد اليها عندئذ أخذت رأس ابنها وقدمتها اليهم فداء لرأس الحسين . والحى المجاور للمسجد يعرف حتى الآن باسم حى ام الغلام ، أما المكان الذى استقرت فيه الراس فلا يروح العطر منه ابدا .. فوق هذا الشق تقوم مئذنة المشهد التى شرع فى بنائها فى عصر صلاح الدين الايوبى (٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م) ويبدو ان الذى أنفق على تشييدها رجل صالح يدعى أبو القاسم بن يحيى ، اذ يوجد نقش على قاعدة المئذنة نصه :

« بسم الله ، أوصى بانشاء هذه المئذنة المباركة على باب مشهد الحسين تقربا الى الله ورفعا لمنار الاسلام الحاج الى بيت الله أبو القاسم بن يحيى بن ناصر السكرى المعروف بالزرزور تقبل الله منه ، وكان المباشر لعمارتها ولده لصلبه الاصغر الذى أنفق عليها من ماله بغية عمارتها خارجا عما أوصى به والده المذكور وكان فراغها فى شهر شوال سنة أربع وستمائة .. » .

وما تبقى من المئذنة قاعدتها الايوبية . اما جزؤها

العلوى ، فقد تهدم ، واستبدل به بناء عثمانى فى عصر الاحتلال التركى المتـــأخر ، ويتميز الجزء الاصلى من المئذنة بجوفاته المقرنصة الثلاثة الى تشـــغلها ثلاث حشوات مطولة تزخر بحشـــد من الزخارف النباتية المحفورة فى الجص ، من الطابع الاندلسى الذى نراه فى قصر الجعفرية بسرقسطة وفى المسجد الجامع بتلمسان. ويعلو كل حشوة طاقة معقودة مقرنصة . وتشـــغل الفراغين والواقعين بينهما قوقعتان مقرنصتان .

واذا ما انتقلنا الي شارع بين القصرين ، وفى منطقة الصاغة ، حيث سوق الذهب والفضة ، اذا رفعنا البصر سنجد مئذنة مدرسة الصالح نجم الدين أيوب . انهـــا المئذنة الوحيدة التى تبقت سليمة من العصر الايوبى . انشأها الملك الصالح نجم الدين ايوب بن الكامل فى ٦٤٢ هـ (١٢٤١ م) ، فى أعلى الباب بأسفل المئذنة لوحة تشير الى الشروع فى بناء المدرسة نصها :

« بسملة . أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الاعظم الملك الصالح نجم الدين بن محمد بن ابى بكر أيوب في سنة أحدى وأربعين وستمائة » .

فى تلك المئذنة نجد ان الجزء المثمن أصبح مستقلا وبارزا بعد أن كان مندمجا فى مئذنة الجيـــوشى فى مجموع البناء ، وأصبحت المبخرة اكثر وضوحا ، وخلال نصف قرن تلا سقوط الدولة الايوبية ساد نظام المباخر فى المآذن المصرية وهو طراز مصرى خالص لم يتكرر فى اى بلد آخر .

ونلاحظ ان شخصية المئذنة المصرية لم تتبلور ، ولم

تتضح الا فى العصور التى نعمت فيها مصر بالاستقلال ، الدولة الفاطمية ، ثم الايوبية ، والسلطنة المملوكية . ومن مآذن العصر المملوكى الاول مئذنة المنصور قلاوون ، قبل أن نصل الى بابهـــا الصغير نعبر ردهة طويلة ، عالية السقف ، تذكرنا ببهو المعابد الفرعونية ، الهواء رطب ، الى اليسار تقوم قبة قلاوون الرائعة ، التى اســتوحى فى تصميمها قبة مسجد الصخرة ، والتى يرقد تحتهـا الناصر والمنصور قلاوون ، نصل الى الباب الصغير الذى يسلمنا الى سلم دائرى من الحجارة ، يستدير حول جسم اســـــطوانى يمثل لب المئذنة ، يدور السلم ، تتخلل الجدران فتحات دائرية قصيرة نلمح منها سمك جدران المئذنة الذى يبلغ حوالى المتر ، نرى المدينة القديمة ، القريبة والمبانى الحديثة الشاهقة عند الافق .

نصل الى القاعدة المربعة ، حيث ينتابنا الاحساس بالعلو الشاهق اذ يرتفع جسم المئذنة النحيل ما يقرب من ارتفاع عمارة حديثة مكونة من اثنى عشر طابقا ، واذ نستند الى الحاجز الخشبى للشرفة نستطيع أن نلمح افريز المقرنصات الذى يحيط بقمة القاعدة المربعـــة ، والذى يرى الباحثون فى زخارفه تأثيرات اندلسية ، تلك الزخارف تشبه زخارف مسجد اشبيلية ، قد يبدو هذا أكثر وضوحا فى الطابق الثانى من المئذنة ، وفى الطابق الاخير حيث نجد شبكة من المعينات الزخرفية ، ربما يرجع هذا الى زيادة الصلات بين مصر والاندلس ، خاصة بعد ظهور مصر كأقوى دولة اسلامية اذ قضت على الخطر المغولى فى عين جالوت (٦٥٨ هـ ـ ١٢٦٠ م)

وبروزها بوصفها القوة الرئيسية فى التصدى للخطر الصليبى فى الشام .

من فوق الطابق الثانى للمئذنة ، وبنظرة خاطفة نجمع فترة طويلة من الزمن ، أمامنا تعلو مئذنة مسجد السلطان برقوق ، بقامتها الرشيقة وطوابقها الثلاثة المثمنة وطبقتها الوسطى المزينة بالرخام على هيئة دوائر متقاطعة ، وهذه الزخرفة الرخامية تعد الاولى من نوعهـا فى المـآذن المصرية .

يفصل مئذنة قلاوون عن مئذنة برقوق فراغ ليس بكبير اذا قسناه بالامتار ، لكنه من عمر الزمن يبلغ مائة وعشرا من السنين ، وسط الفراغ ، نلمح مئذنة صغيرة اقل ارتفاعا ، انها مئذنة الناصر محمد بن قلاوون التى تعلو مدرسته . والتى تعلو قاعدتها زخارف جصية رائعة . هذه الزخارف بها تأثيرات أندلسية أيضا . فى هـذه الساحة تنتصب مآذن قلاوون وبرقوق ، كل منها تعبر عن عصر بأكمله ، ولكنها فى مجموعها تشكل متحفا متكاملا حيا لفن العمارة الاسلامية .

وبمرور الزمن يصبح التطور فى المآذن المصرية أكثر وضوحا . لقد تضاءلت القاعدة المربعة حتى أصبحت مجرد سند لجسم المئذنة وبرز الجزء المثمن ، كما نجد فى مئذنتى المارداني وأقبغـا (٧٤٠ هـ ــ ١٣٤٠ م) . ومئذنتى شيخون (٧٥٠ هـ ــ ١٣٤٩ م) وربما يرجع هذا الى فيض من التأثيرات السورية التى طرأت على المآذن المصرية بواسطة صناع الشام المهاجرين . نلاحظ أيضا اختفاء المبخرة ، لقد حلت مكانها دائرة صغيرة من

الحجر « جوسق » مسحوبة الى اعلى . وكانت قمة هذه المآذن من الناحية الجمالية والفنية ، مئذنة السلطان الاشرف أبى النصر قايتباى (٨٧٧ هـ ـ ٨٨٩ هـ) وقد استمر هذا الطراز متبعا بقية العصر المملوكى ، وان كنا نلمح بعض الاضطراب فى التطور . ويبدو هذا واضحا فى مئذنة السلطان الفورى حيث تتعدد الرءوس فنجد أربع بدلا من واحدة ، واذ نقف فى منتصف المسافة بين الفورى والجامع الازهر نلمح التشابه بين مئذنة الفورى والاخرى التي بناها بجامع الازهر والتى يعلوها راسان بدلا من أربع ، لابد ان المهندس شخص واحد ، أراد أن يحدث شكلا من الابتكار ، فاستحدث أربع رءوس للمئذنة بدلا من رأس واحدة ، ولكنه تطور مفاجىء ، لا ينم عن أصالة ، أو تجديد يستند الى أصول ثابتة .

مع الغزو العثمانى لمصر تتعرض المآذن المصرية لمحنة ، لقد بدأ الاحتلال التركى ومع الاحتلال يجىء الغازى محاولا فرض طرزه وأساليبه ، وتبدو روح المقاومة فى البناء نفسه ، ينعكس الصراع حتى على الحجر .

القلم الرصاص

فى فراغ القاهرة تنتصب مآذن نحيلة ، تنطلق الى أعلى كالحراب ، تذكرنا بالمآذن السلجوقية ، أو مآذن استانبول ، نراها فوق مسجد محمد على بالقلعة والذى بنى فى القرن التاسع عشر ، انه الطراز المعمارى للغازى ، مآذن تركية مسحوبة ، خالية من الزخارف ،

متجهمة ، خالية . لا توحى بالسلام والدعة والابتهال والمناجاة الصامتة ، تلك المعانى التى تتجسد فى المآذن المصرية الاصلية ، حتى التى تبدو فيها تأثيرات سورية أو أندلسية ، لا أدرى لماذا تذكرنى المآذن العثمانية بالحراب .

لكن يبدو الصراع الذى كان قائما بين الروح المصرية والمحتل العثمانى فى نماذج أخرى ، فى مسجد المحمودية الذى انشأه محمود باشا والى مصر العثمانى (٩٧٣ هـ ـ ١٥٦٠ م) لقد تأثر المهندس بجامع السلطان حسن وجعل المئذنة بارزة عن المسجد ، أيضا شكل قاعدتها ، نرى هذا أكثر فى مئذنتى جامع البردينى (١٦١٦ م) اذ تبدو المئذنة المصرية واضحة تماما ، كما كانت زمن المماليك الجراكسة . هنا نرى انعكاس الظروف بسرعة على العمارة ، فى زمن محمد بك أبو الذهب (١٧٠٣ م) زميل على بك الكبير الذى حاول الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية ، وفى مئذنته المواجهة لمآذن جامع الازهر يبدو الطراز هنا مختلفا تماما عن مآذن العصر التركى ، اذ أنها تنتمى الى الطراز السورى المربع ، وتنتهى قمتها بخمس رءوس ضخمة ، والأهالى فى منطقة الازهر يقولون ان ثمة كنزا خبيئا فى هذه الرءوس ، ربما حاول المهندس أن يستوحى مآذن الغورى ذات الرءوس المتعددة ، لكن تستوقفنا ملحوظة غريبة فى تلك المئذنة ، انها تشبه برج الكنيسة فى قامتها المستطيلة ، وفى التجاويف العلوية المفتوحة ، والتى تذكرنا بمكان الناقوس فى الابراج الكنسية ، ولكن يبدو هذا التأثير مستوحى من

المآذن السورية التى تأثرت بأبراج الكنائس عند نشأتها .

وخلال القرن التاسع عشر ساد نظام المآذن العثمانية ، ولكننا نلاحظ فى المساجد الحديثة محاكاة لمآذن العصور الوسطى المملوكية ، وليس هذا لان تلك العصور شهدت قمة التطور للمئذنة المصرية ، ولكن لان مآذن هذا العصر تعد متكاملة العناصر من الناحية الفنية ، والجمالية . وأرقى ما وصلت اليه المآذن المصرية .

بيوت القاهرة القديمة

قاهرة القرون الوسطى ، الشـــــوارع ضيقة غير مرصوفة ، متعرجة ، مبلطة بالحجارة المضلعة ، تصادفنا مساحات هائلة الاتساع ، غير منظمة الشكل ، تتفرع منها أزقة ضيقة يصعب فى بعضها أن يمر رجلان بجوار بعضهما ، المنازل متقاربة حتى ان الاسطح تكاد تتلاصق ، جانبا الزقاق الضيق يتكونان من جدران هذه المنازل ، تمتد الحصر من سطح الى سطح ، صحيح ان الشارع الضيق يسبب بعض المشقة لكن هنا برودة منعشة تجىء من تيار الهواء البارد الذى يمر بين البيوت القريبة من بعضها ، ان طبيعة الجو الحار فى القاهرة حددت مدى اتساع الحوارى وطريقة بناء بيوتها كمـا سنرى بعـد قليل ، البيوت مجموعة من الجدران الخالية من النوافذ ، بين الحين والحين يمر حمار يركبه واحد من الاهالى — الحمار وسيلة المواصلات الوحيدة الرئيسية — عندئذ يضطر الواقفون الى الصاق ظهورهم الى الحائط ، بينما تلقى الجدران ظلالا رمادية تزيد البرودة .

فى نهاية الزقاق جامع صغير ، لعله ضريح احـد

الاولياء ، طليت جدرانه بمختلف الالوان من اصفر واحمر وازرق مما يضفى بعض البهجة على الحارة الصفيرة .
فى جدران المنازل الخارجية لا تلمح الا المشربيات التى تتشـــابه كثيرا ، ان المشربيات التى تطل على الطريق ليست فى جمال المشربيات التى تطل على الفناء الداخلى. فالسكان عادة يحتفظـــون بالمشربيات الجميلة للنوافذ الداخلية للمنزل والتى تطل على الفناء أو الحديقة ، وهذا ما نجده واضــحا الآن فى قصر المسافرخانه وبيت السحيمى ، ومنزل زينب خاتون ، واسم « المشربية » مشتق من الفعل « يشرب » ثم استعمل للنوافذ المصنوعة من الاعمدة الخشبية الرفيعة المتشابكة ، لان القلل كانت توضع عليها لتبريد الماء وفى اغلب الاحيان نجد رفــا صفيرا يبرز الى الخارج توضع عليه أوانى الفخار لتبرد بفعل الهواء وفي قصر المسافرخانة نجد طريقة اخــرى لتبريد الماء ، فوق أحد أقسام البيت عدة رفوف رخامية تتخللها فجوات توضع فيها الاوانى لتبرد فى الهواء ، ويطلق على هــذه الرفــوف المثبتة فى تجـويف واسع بالجدار اسم « مزيرة » .

والمشربية لا تسمح للجيران أن ينظروا ما وراءها ، غير انها تحتوى فى الوقت نفسه على مكان كاف يسمح بتخلل الهواء اليه ، فالمشربية مكان رطب للانسان تماما كما هو لاوانى الماء ، كما أن الجالس فيها يمكنه رؤية المارة فى الطريق من حيث لا يرونه ، مع هذا توجد نوافذ صفيرة مناسبة فى المشربية يمكن دفعها الى أعلى فى مجار صفيرة محفورة فى الخشب اذا رغب اصحابها فى

ذلك وكثيرا ما كانت نساء القاهرة الجميلات ينظرن من هذه النوافذ الصغيرة ليشترين شيئا من أى بائع جوال وليستعرضن جمالهن فى نفس الوقت ..

ها نحن أمام باب من أبواب هذه البيوت ..

الباب مقوس من أعلى ، مزخرف ببعض النقوش العربية ، وربما آية من القرآن الكريم ، نطرق الباب بمقبض نحاسي على هيئة كف آدمى ، قد تضطر الى الانتظار طويلا حتى يسمعك من يدخل الدار ، يصادفنا ممر ينعطف فجأة بعد خطوتين ، يحول دون مشاهدة الفناء الداخلى ، فى نهاية الممر نجد أنفسنا أمام حديقة جميلة تتوسطها نافورة مرصعة بالرخام الملون ، فى أقصى الفناء نلمح بئرا للمياه ، الهدوء مستكن وناعس فى الهواء حتى لتظن انه لا أثر للحياة هنا ، الابواب مغلقة ، غرف النساء معزولة فوق ، ينظرن الى الفناء من خلال هذه المشربيات الدقيقة الجميلة ، يزداد احساسك بالبعد عن ضجة الطريق وصخبه ، فعلا ، ما أبرع المهندس الذى بنى هذا البيت ، هنا لا يمكن لجارك أن يراك ، لا يمكن للضيف ان يرى الحريم ، يمكن عن طريق المشربيات ، وملاقف الهواء السماح لاكبر كمية هواء بالدخول ، وكمية ضوء قليلة .

لو دخلنا الغرف السفلية ، وتمكنا من دخول الحرملك ، نلاحظ أن الجو الحار لم يكن العامل الوحيد الذى أثر فى البناء وشكله ، انها ظروف المجتمع المصرى ايضا ، وضع المرأة الاجتماعى ، جو العلاقات السائدة بين الامراء وبعضهم ، وبين كبار رجال الدولة .

هذا كله ينعكس على البيت القاهرى القديم .

قصر المسافرخانة « حارة درب الطبلاوى بالجمالية » .

بيت السحيمى « الدرب الاصفر بالجمالية » .

بيت مصطفى جعفر « شارع المعز لدين الله وناحية الدرب الاصفر » .

قاعة محب الدين « بيت القاضى بالجمالية » .

قاعة الامير بشتاك « شارع المعز لدين الله » .

منزل جمال الدين الذهبى « حارة خوش قدم بالفورية » .

منزل السنارى « السيدة زينب » .

هذه بعض البيوت القاهرية القديمة التى بقيت حتى زماننا هذا ، مجموعة لا يوجد مثيلها فى أى عاصمة فى أى بلد أو مدينة بالعالم قاطبة ، والى جانب انها تضم تراثا معماريا وفنيا وثقافيا خطيرا ، فانها تقدم لنا صورة صادقة للحياة فى المجتمع المصرى .

اننا نجد تنوعا واختلافا فى نوعية وطرز هذه البيوت ، صحيح انها تبدو متشابهة ظاهريا لكنها تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا ، ها هى الفخامة والاتساع فى قصر المسافرخانة (شيد عام ١٧٧٩ م ـ ١١٩٣ هـ) فيه أجنحة متعددة ومنشآت مختلفة ، وبرغم هذه الضخامة فان ما نراه اليوم ليس الا جزءا متبقى من السراى الاصلى ، والتى بنيت على مرحلتين ، الاولى عام ١١٩٣ هـ وبناها محمود محرم أحد كبار التجار المصريين ، أما المرحلة الثانية فانشأها ابنه عام ١٧٨٩ م .. اننا نجد الرقة والجمال المتواضع الرفيع وجو الأسرة المصرية فى

بيت السحيمى ، الذى بناه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى سنة ١٠٥٨ هـ ــ ١٦٤٨ م ، وعندما انتقلت ملكية المنزل فى سنة ١٧٩٧ م ــ ١٢١١ هـ الى الشيخ اسماعيل شلبى انشأ الجزء البحرى الحالى من البيت ويضم القاعة الكبيرة ، والقاعة الارضية ذات الفسقية الرخامية النادرة ، والحجرة العلوية الجميلة المكسوة بالقيشانى ، اما البساطة وقلة الزخرفة مما يوحى بآثار من بخل تاجر حريص فنجده فى منزل جمال الذهبى شهبندر تجار الغورية أيضا بيت مصطفى جعفر والسنارى .

ان كل بيت من هذه البيوت يتميز ببعض خصائص غير موجودة فى البيوت الاخرى ، تنفرد المسافرخانة باغرب واطرف ما وصل الينا فى عمارة البيوت المصرية ، الجزء المخصص للثور الذى يدير الطاحونة، ان ضخامة البيت وعلوه ، حتمت أن توجد طاحونة ترفع الماء من أسفل ، وقد وضع المهندس المصرى هذه الطاحونة فى الطابق الثانى ، ويصل اليها الثور المخصص لادارتها عن طريق سلم صنع خصيصا له ، بحيث يمكنه النزول او الطلوع بسهولة كافية ، توجد أيضا بالمسافرخانة أضخم مشربية وصلت الينا من البيوت المصرية القديمة ، وهى التى تمثل واجهة المبنى القبلية المطلة على الفناء الداخلى ، أيضا يوجد فيها حمامان ، حمام صيفى لا تستعمل فيه غير المياه الباردة ، وحمام شتوى يتم تسخين الماء فيه بطريقة معقدة بواسطة مواسير من نفس مواد البناء تحت الارض ، كانت تقوم بعمل السخان الكهربائى الحديث اما الهواء فتجده فى أقصى نقطة بالبيت ، عن

طريق « ملاقف الهواء » اى فتحات واسعة فى أعلى نقطة بالبيت تدفع الهواء الى أقصى نقطة فيه بحيث يغمر البيت جو شبيه جدا بالبرودة التى تحدثها أجهـــزة تكييف الهواء ، يوجد أيضا عدد من الابواب السرية التى تبدو كأنها جزء من الجدار الخشبى وعندما تفتح تجد سلالم تؤدى الى الفناء أو الى الحديقة الخلفية الصغيرة ، أو الى حجرة أصغر ، نحار فى سبب وجود هذه الابواب ربما كانت لسهولة حركة الحريم بعيدا عن الغرباء عندما كان البيت مملوكا لمحمود محرم ، أو لاسباب غامضة ربمـا كانت سياسية عندما تحـول البيت الى مكان للضيوف الكبار فى عهد محمــد على ، ومن هنــا جاء اسمه المسافرخانة .

***

فى بيت السحيمى لا نجد فيه هذه الغرف المعقـــدة المتداخلة كما فى المسافرخانة ، انه بيت بسيط جميل ، فيه عذوبة وسماحة جو الاسرة المصرية ، تمضى غرفة كاللحن الهادىء العذب ، تتدرج فى انتظام ، كل منهـــا تؤدى الى الاخرى عنـــدما تقف فى الغرفة التى كانت مخصصة لقراءة القرآن الـكريم فى رمضان ، وللسهرات اوانى الماء الرخامية فى الاركان ، المقاعد العالية ، تملؤها بالخيال بهؤلاء الاجداد المشايخ تغمر روحنـا رائحـــة هذه الايام البعيدة المطوية فى الزمن ، تطالعنا النوافذ الصغيرة المخصصة للحريم ، ينظرن منها دون أن يراهن احد ، نشعر بجو الاسرة وعدم الحرية الذى كانت تعيش فيه جداتنا ، كانت حياة الحريم محصـــورة فى هــذه

القاعة الجميلة المحـاطة بالمشربيات فى بيت السحيمى .
او فى الغرف العلوية بمنزل جمال الدين الذهبى ، ان غرف الحريم دائما فى الطابق الثانى ، قريبة من الحمام، ودورة المياه دائما بضـــعها المهندس تالية عن الهـــواء حتى يضيع أى أثر للروائح الـكريهة . والبيوت المصرية القديمة انفردت بدورات المياه الخاصة فى الوقت الذى لم تكن أوربا تعرفها ، لقد كان جنود الحملة الفرنسية يعجبون جدا اذ يرون المصريين يدخلون فى بيوتهم الى هذه المقاصير الفسيحة التى يقضون فيها حاجاتهم .

أن غرف الحريم هذه لا ينفذ اليها غير رب البيت ، وكلمة حريم تعنى محرم على الغريب محلل للسيد نفسه والدهاليز المؤدية الى الحريم لا تمضى فى مستوى واحد بل تهبط فجأة كدرجة السلم لتستمر من جديد ، فلو مشى فيها أحد الغرباء فى الظـلام وكان جاهلا بمواضع البيت لسقط ، عندئذ يكتشف أمره بسهولة ، لقـــد كانت حياة جداتنا مثيرة للكآبة والملل ، كانت تدور حول المأكل ، والملبس ، والنوم والجلوس على الديوان ساعات كثيرة ، والاستغراق فى الاحلام ، ومحاولة ارضـــاء الزوج ، وكسب محبته وقصرها على الواحـدة منهن ، ويقول ستانلى لين بول فى كتابه عن القاهرة ، ان امرأة انكليزية سألت احـــدى القاهريات كيف تمضى وقتها ؟ فأجابت : « أننى أجلس على هذه الاريكة ، فاذا ما انتابنى الملل نهضت لاجلس على تلك » .

فى الفناء المتسع لقصر المســـافرخانة ، هنا حيث

الهدوء ، أصوات العصافير المشعشة فى أعالى البيت تحيطنا علامات التجديد الذى تم أخيرا فى القصر لتحويله الى بيت للفنانين ، ان الفنان الشاب عز الدين نجيب هو المسئول حاليا عن النشاط الثقافى فى المسافرخانة ، وله خبرة عريضة فى قصور الثقافة الجماهيرية لـــكن الامر هنا يختلف ، ان الظروف التى تحيط بالمسافرخانة غير الظروف التى يعمل فيها أى جهاز للثقـــافة الجماهيرية ، ان المسافرخانة فى مكان يصعب الوصول اليه لمن كان غريبا عن الحى ، حتى أهالى الحى لايعرفها منهم غير قليلين ، وقديما كانت المســافرخانة بيتا مهجورا تحيطه الخرافات ، يقول انه من الضرورى جدا قبـــل تحويل المسافرخانة الى مركز ثقافى أن يتم ربط أهالى الجمالية بهذا الاثر العظيم ، لابد أن يعى أهالى الحى تاريخ هذه الآثار المهمة الموجودة بينهم ، هنا تدب الحرارة فى الحجارة الرمادية وتنطق بآلاف الاشياء .

فى مواجهة الحديقة ، نلمح عامودا رومانيا بديعـــا يحمل السقف الخشبى الرائع الذى لا يوجـد مثيله . فوق السقف توجد القاعة الرئيسية بالدور العـــلوى ارضيتها مفروشة بالرخام الخـــردة وصدرها مكسو بالقيشانى ، وفى حجرات البيت نلتقى بالفنانين الذين يقيمون حاليا فيه ، عبد الوهاب مرسى الذى ينعكس الجو المحيط به فى أعماله انعكاسا واضحا ، وقد استطاع عبد الوهاب ان يعيد ملامح الحياة القديمة فى غرفتـه البديعة بفرشها بأثاث قديم ايضا : وســائد وحشايا تماثل ما كان موجودا فى الاصل .

كما نلتقى بالفنانين جمال محمود ، مصطفى الفقى ، احمد نبيل ، صبرى منصور ، محمد حسنين ، محمد مصطفى ، الدكتور رمزى مصطفى ، حسين سليمان .

والحقيقة انه قبل أن يتم تحسين البيت واصلاحه ، والاهتمام به من جانب مصلحة الفنــــون الجميلة ، كان البيت مهددا بالزوال ، وكانت ظروف الاقامة فيه تكاد تكون مستحيلة ، ومع هذا فقـــــد عرف الطريق اليه الفنانون ، عبد الوهاب مرسى ، وأحمد نبيل ، ومصطفى الفقى ، وصبرى منصور .

وينوى الفنان عز الدين نجيب ، اقامة عدة معــارض فنية بالقصر ، وتقديم مواد ثقافية يتم من خلالهـــــا تعريف الاهالى بتاريخه وتاريخ الجمالية ، والآثار التى تحويها ، ويوجد فى المنطقة عدد كبير من الشباب المثقف لابد من ربطه بالبيت ، وكثيرون منهم على اســـتعداد للتعاون مع الفنانين ، وعندهم الوعى الكامل بأصـــالة منطقتهم ، وقد بادر ثلاثة من الشباب الجامعى فى حارة درب الطبلاوى الى المساهمة فى نشـــاط القصر ، وهم أحمد حسنى ، وحسانى ، ومحمود شمس الدين،وينوون تركيز نشاطهم فى فترة الاجازة الصيفية ، يقول عزالدين نجيب ، سيتم تحويل البيت الى مركز ثقافى حى أيضا سيتم تنظيم زيارات للمثقفين لتعرفهم على البيت وعلى المنطقة ، وهذا يحدث فعلا الآن .

غير اننا نلاحظ ان كثير من المثقفين الذين يجيئون الى الحى ، يتجولون فيه بخلفية ملخصها ان كل ما يراه شىء غريب ، الناس تحف من القرون الوسطى ، يقف بعضهم ،

يشير الى سلة أو قلة أو حزمة ثوم موضوعة على نافذة ويصيح ، يا سلام شايف اللقطة ، ان هذا يزيد الفجوة بين المثقفين وبين الاهالى ، يقول عز الدين ، ان مثـل هؤلاء ليس لديهم الاحساس بالاصالة المتمثلة فى تاريخ الحى الناتج عن جهلهم به ، يستحيل التعاون مع مثـل هؤلاء ، اننا نجد صورة اخرى ، كثير من المثقفين الذين يدركون تاريخ مصر وعظمته واصـــالته بداوا يرتبطون بالحى عن طريق ترددهم على البيت وبقيـة الآثار ، ان جذورنا تمتد هنـا وتتأصل فى هذه المنطقة العريقة ، والمرجو ان يتحول المسافرخانة الى مركز ثقافى يجمع الفنانين التشكيليين والادباء يستلهمون من خـلاله تاريخ مصر ويعبرون عنه فى أعمالهم .

***

الحقيقة ان الجهد الكبير الذى قامت به وزارة الثقافة اثناء تولى الدكتور ثروت عكاشة أمورها فى اصـــلاح المســافرخانة وبيت الســـحيمى وبقية البيوت الأثرية يستحق التقدير ، كان من الممكن ان تتلاشى هذه المبانى فى خلال سنوات قليلة ، وكاد يحدث هذا بالفعـــل بالنسبة للمسافرخانة التى أنتزع منهـــا خلال السنين الماضية الكثير من اخشابها الرائعة ، ويكفى انك لو تأملت بعض عشش الفراخ فوق أسطح بيوت درب المسمط ، ودرب الطبلاوى ، لوجدتها مصنوعة من أخشاب مشربيات توافق نفس الطراز المصنوع منه نوافذ المسافرخانة واننا نرجو أن تلقى بقية المبانى الاثرية ، نفس العناية ، أيضا حى الجمالية ككل ، فى مواجهة عمليات الهدم التى تقوم

بها بعض الجهات الاخرى تحت حجة التوسع والتجميل وبالذات فى حى الجمالية الذى تواجه شخصيته الاصيلة الآن خطرا فادحا بعمليات الهدم التى تزحف فيه كسرطان الدم . اننى أنصح السادة الاداريين الذين اصـــدروا قرارات ادارية لهدم بعض أجزاء الحى أن يعرفوا جيدا تاريخ مصر ، وأن يقـــرأوا البحث الرائع الذى قـدمه المستشرق الفرنسى جاك بيرك عن « حى الجمالية » وأن يعرف الاجنبى عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا فهـذه والله العظيم مصيبة .

الباب الدامى

« .. منذ عشرات السنين فقد باب زويلة أهم وظائفه ، فلم يعد يمثل أحد مداخل القاهرة بعد أن اتسعت المدينة ، وامتدت مبانى الاهالى خارجها فيما تلى العصر الفاطمى من حقب ، ثم بطل تعليق رءوس المتمردين عليه منذ أوائل القرن الماضى ، حتى متولى حسبة القاهرة الذى كان يتخذ مكانا مجاورا له لم يعد يجلس فى نفس المكان لان الوظيفة نفسها بطلت منذ القرن الماضى ، ولم تترك أثرا الا على ألسنة بعض الناس الذين نسبوا الباب الى المتولى ، فصار اسمه باب المتولى ، ما بقى لباب زويلة حتى يومنا هذا قيمة مستمدة من عمره الضارب فى الزمن لمدة ألف سنة ، وبقايا اعتقاد قديم لدى بعض نساء العامة أن من لا تحبل ، تستطيع أن تدق مسمارا وتعقد عليه بعض الخيوط ، عندئذ قد تتحقق أمنيتها ، وتنجب ولدا ، غير ان باب زويلة لا زال يحتفظ بعلامات من الوظيفة التى ظل يمارسها لاطول فترة من الزمن ، انه المكان الذى كانت تعلق عليه الرءوس ، واذا دققت النظر فقد تلمح بقايا دماء جفت منذ قرون ، فى

هـذا الوضع علقت رءوس فلاحين فقراء ، واغراب ، واعداء ، وسلاطين حكموا مصر .

***

مع الفتح الفاطمى لمصر جاءت قبائل مغربية عديدة ، احداها كانت تسمى «زويلة» ، عبد الله المهدى (٢٩٧ هـ - ٣٢٢ هـ - ٩٠٩ - ٩٣٣) . وعندما جاءت قبيلة زويلة احتلت جزءا كبيرا من القاهرة ، مكانه الآن حارة اليهود بشارع الموسكى ، اليها ينسب هذا الباب الذى كان أحد ثمانى أبواب اختطها جوهر الصقلى فى السور الذى أحاط به القاهرة ، ويبدو ان باب زويلة كان فى البداية مكونا من جزئين متجاورين ، وعندما جاء المعز لدين الله الى القاهرة مر من أحد القسمين ، فتفاءل الناس بذلك ، واهملوا المرور من القسم الثانى الذى قيل عنه ان من مر منه لم تقض له حاجة ، واستمر الامر حتى سد ، وفى العصر الفــاطمى كانت القاهرة مقصورة فقط على سكنى الخلفاء ، وكبـــار رجال الدولة ، وكان المواطن المصرى لا يستطيع اجتياز أبواب القــاهرة الملكية الا بتصريح خاص ، عاشت أسوار القاهرة الذى بناها جوهر الصقلى ثمانين عاما ، كانت من الطوب اللبن ، ولم تعد صالحة للأغراض الدفاعية ، فما ان استوزر المستنصر أمير الجيوش بدر الجمالى حتى أنشأ سورا آخرا من الحجر ، بعد أن مد مساحة القاهرة بمقدار ١٥٠ مترا الى شمال السور القـــديم ، وحوالى ثلاثين مترا الى الشرق ، ومثلها الى الجنوب ، ويقـول المقريزى ان بدر الجمالى استعان بثلاثة أشقاء أصلهم من مدينة الرها

بشمال العراق فى بنـــاء هذا السور وبواباته ، وكان باب زويلة هو البوابة الرئيسية فى السور الجانبى ، وهو المتبقى حتى الآن ، الى جانب ثلاثة بوابات وصـــلن الى عصرنا من البوابات الاصـــلية : باب الفتـــوح : بوابة النصـــــــر ، بوابة البرقية ، ويقـــــول المقريزى : « وقـــد أخبرنى من طاف البلاد ورأى مدن الشرق انه لم يشاهد فى مدينة من المـدائن عظمة باب زويلة ، ولا يرى مثل مئذنتيه اللتين عن جانبيه ، ومن تأمل الاسطر التى كتبت على أعلاه ، من خارجه فانه يجد فيها اسم أمير الجيوش والخليفة المستنصر ، وتاريخ بنائه ، وقد كانت المئذنتان أكبر مما هما الآن بكثير ، هدم أعلاهما الملك المؤيد شيخ المحمودى الذى بنى الجامع داخل باب زويلة ، وعمـل على البـدنتين منـارتين ، والمئذنتان قائمتان حتى الآن ، خلال العصر الفاطمى لم يستخدم باب زويلة مكانا لتعليق رءوس المتمردين ، لقـــد كان أحد أبواب المدينة المقدسة ، ولا تسجل المراجعالتاريخية اى حادثة اعدام تمت عند الباب ، ويبدو ان طبيعـة العصر الفاطمى وما حفل به من استقرار كانت لا تتيح فرصا كثيرة لمظاهر الشنق العلنية ، صحيح ان ثمـــة اضطرابات عديدة وقعت ، وكثير من القتلى راحوا خلال المعـــارك بين الاطراف المتنازعة ، ولكن تعليق الرءوس بشكل علنى لم يسجله لنا التاريخ كما سيحدث خـلال العصور التالية ، واذا رحلنـــا مع المؤرخ ابن اياس فى كتـــابه : « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » فسنجده يسجل أول حادثة صلب علنية فى النصف من شعبان سنة ٦٦٥ هـ ، عنـــدما شن السلطان الظاهر بيبرس

البندقداري حملة لابطال الحشيش ، واضراب الخمارات، ومنع العاهرات ، فى تلك الاثنـــاء ظفر والى الشرطة بشخص يسمى ابن الكازرونى ، وكان سكرانا ، فأشهره فى القاهرة ، وعلق الجرة والقدح فى عنقه ، وصلبوه على باب النصر ، لم يصلب على باب زويلة ، ويبدو ان الصلب كان يتم فى الاماكن الظاهرة للنـــاس بدون تخصيص مكان معين لذلك ، وأحيانا كان يتم على باب القلعة نفسها كما حدث فى شهر ذى القعدة سنة ٧٧٨هـ، عندما وقعت فتنة بين الامراء والسلطان ، وتم القبض على خمسة امراء هم الامير ارغون شـــاه ، والامير صرغتمشى ، والامير بيبغا الساقى ، والامير بشـتاك الكريمى ، والامير أرغون العمرى الصرير ، تم اعدامهم ، وعلقت رءوسهم على باب القلعة ، ولكن يبدو ان مثـل هذا الشرف لم يكن يحظى به الا الامراء ، وذوى المراتب العليا عند تمردهم ، ووقوعهم فى قبضة السـلطان ، والقصد من تعليق رءوسهم على باب القلعة هو ارهاب الامراء الباقين ، ولا علاقة للشعب بالامر اذن .. لمـاذا تعلق الرءوس على باب النصر أو باب زويلة ؟

الخنـــاقة

فى سنة ٦٩٤ هـ ، وفى يوم عاشر المحـــرم ، ركب جماعة من المماليك تحت الليل ، وفتحوا باب سعادة ، وهجموا على اصطبلات الناس ، واخذوا خيولهم ، فلما طلع النهار ارسل الامير كتبغا قبض على من فعل ذلك

من المماليك ، وقطع أيديهم ، وطاف بهم القاهرة ، ثم صلبهم على باب زويلة ووسط منهم جماعة (أى قسم اجســــادهم بالسيف الى نصفين ، نصف علوى وآخر سفلى) . تلك أول حادثة صلب يخبرنا بها ابن اياس فى كتابه ، تتم على باب زويلة ، ويبدو اننا لن نسمع منذ الآن فصاعدا الا عن مكان واحد تتم فيه هذه المهام ، وهو باب زويلة ، وهكذا أصبح من نصيب هذا الباب أن يكون مقرا للرءوس المقطوعة ، ليبث الذعر والخــــوف فى النفوس ، بينما نجد الباب المقابل له ، والذى يقع عند نهاية الطريق ، باب الفتــــوح ، يمثل الباب الرسمى للمدينة ، فعنده تبدأ مواكب السلطان اثناء عودته ، أو تنتهى أثناء خروجه ، وكان السفراء يقبلون الارض أمامه ثلاث مرات قبل دخول المدينة متوجهين الى القلعة ، مقر حكم السلطان .

فى سنة ٧٣٩ هـ ، ظهرت بالقـــاهرة امرأة تسمى الخناقة ، فاشتهر أمرها بين الناس ، فكانت تحتال على الاطفــــال والنساء ، وتخنقهم ، وتأخذ ما عليهم من الثياب ، فلما شاع أمرها ، وبلغ السلطان ، رسم لوالى القاهرة أن يقبض عليها ، فلا زالوا يتبعونها حتى قبضوا عليها ، وشنقوها على باب زويلة ، وفى مثل هذه المناسبة يتجمع الناس للفرجة ، ويبلغ الزحام أشده عند باب زويلة الذى يبدو ان اختيــــاره لهذه المهمة تم نتيجة لكثافة حركة الناس عنده ، انه الباب المؤدى الى اشد مناطق القاهرة ازدحاما ، ثم انه يتوسط مجموعة من الأسواق المتتالية التى لا تخلو من الرواد ليلا أو نهارا

ومنه يخرج الناس متجهين الى مناطق القاهرة الجنوبية التى كانت عامرة بالناس ، كما ان اى متجه الى القلعة لابد أن يمر به ، سواء كان اميرا ، أو سفيرا اجنبيا ، كان الباب صرة القاهرة ، وعنده لم تتوقف الدماء عن التدفق ..

القتل ظلما

وكثيرا ما كانت تختفى المأساة وراء بعض الذين عرفت رءوسهم الطريق الى باب زويلة ، فى رجب سنة ٧٨٢ ، أرسل الاتابكى برقوق مرسوما الى خليل بن عرام نائب الاسكندرية ليقتل الامير المملوكى بركة الذى كان مسجونا ، وعندما انتشرت أخبار القتل ثار مماليك بركة على الاتابكى برقوق ، فأنكر برقوق انه أمر بقتله ، وارسل من أمر بالقبض على خليل بن عرام نائب الاسكندرية الذى راح يصيح ، والله ما قتلته الا بمرسوم الاتابكى برقوق وقد سرق المرسوم منى ، بينى وبينكم الله ، لكن أمور السياسة لا تعرف الهزل ، ولا مجال كما يبدو للأخلاقيات فيها ، لقد أمر برقوق بقتله ، فدقت المسامير فى كفيه ، وأركبوه على جمل ، ونزلوا به من القلعة ، وهنا هجم عليه مماليك بركة وقطعوه ، وشقوا بطنه ، وأخرجوا قلبه ، ثم علق ما بقى منه على باب زويلة ، يقول ابن اياس ان هذه الواقعة صارت مثلا عند المصريين ، « نعوذ بالله من حمول ابن عرام » ، ويورد ابن اياس شعرا مناسبا للواقعة :

مخالط السلطان فى محنـــة
يرتقب الاوقات فى عكســـه
ان شره أســخط خــلافه
أو ساءه خاف على نفســـه

ومن الملاحظ ان معظـــم الامراء الذين يتآمرون على السلطان كانوا يشنقون أو يعدمون بعيدأ عن باب زويلة ، اما فى بيوتهم او القلعـــة ، أو يرســلون الى سجن الاسكندرية الذى كان بمثابة منفى أيضا للســـلاطين المخلوعين ، ولم يسجل التاريخ ان سلطانا قد قطعت رأسه وعلقت على باب زويلة من الذين خلعـــوا من السلطنة ، باستثناء واحد فقط حدث فى احدى اللحظات الحاسمة فى التاريخ ، عندما علق رأس الســلطان الشهيد طومان باى ، بعد قطعه على مرأى من الاهالى ، بواسطة الجنود العثمانيين الذين غزوا مصر ، وحولوها من سلطنة مستقلة الى ولاية تابعـــة ، وكان ذلك من عجائب الدهر ، لقد قاومهم طومان باى حتى الرمق الاخير ، ثم علقت رأسه فوق باب زويلة ، واعيد تمثيل المشهد فى المقياس أيام السلطان المنتصر سليم العثمانى ، عندما صنع المخايل ديكورا يشبه باب زويلة ، وصور اعــدام السلطان طومان باى ، وانقطاع الحبل به مرتين ، فانشرح ابن عثمان لذلك وأنعم على المخايل بمائتى دينار ، والبسه قفطان مخمل مذهب ، ودعاه الى استامبول ليتفرج ابنه على ذلك .

وكان باب زويلة يشـــهد تعليق رءوس بعض الامراء احيانا ، كما حدث فى شوال عام ٨١٨ هـ ، عندما علقت

رءوس بعض الامراء الصغار الذين تآمروا مع الامير قايتباى ضد السلطان المؤيد ، ويبدو ان باب زويلة كان قد صار ستارا للرعب ، فعند تعيين شخص اسمه صدر الدين العجمى فى منصب الحسبة فى محرم سنة ٨٢٣هـ، يذكر لنا المؤرخ ابن اياس ان الامير ططر ، أحد كبار رجال الدولة وقتئذ قال له ..

« لا تظلم أحدا من السوقة والا شنقتك على باب زويلة .. » .

وأحيانا كان الباب الدامي يشهد نهايات بعض الاحداث الغريبة ..

ثورة العبيد

فى شهر ذو القعدة سنة ٨٤٩ هـ ، قام جماعة من العبيد السود بتعدية النيل الى بر الجيزة ، وأقاموا فى الخلاء ، ونصبوا خيما ، وعلقوا على احدى الخيام الكبيرة سنجقا ، وجعلوا لهم سلطانا ، ووزيرا ، ودوادارا، وجعل سلطانهم يجلس على دكة ويحكم بين العبيد ، ويطلب من العبيد من هو معاد لهم ، ويأمر باعدامه بين يديه ، ثم أصدر عدة قرارات بتعيين أمير كبير ، وصاحب حجاب ، وأرباب وظائف ، باختصار بدأ ينشىء نظاما موازيا لنظام السلطنة بما فى ذلك نائب الشام ، ونائب حلب ، ونواب لجميع البلاد ، يقول ابن اياس :

« فلما بلغ السلطان ذلك انحصر الى الغاية ، وصاروا العبيد يقطعون الطريق على الناس ، وينهبوا المغلوب ،

ويأخذوا خراج القطعيين وضيافتهم ، فعين السلطان لهم تجريده ، فتوجهوا اليهم فى المراكب ، فتقاتلوا معهم وكسروا سلطانهم وشنقوهم ، وسجنوا جماعة منهم وهرب الباقون ، ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بأن كل من عنده عبد كبير يطلع به الى باب السلسلة ويقبض ثمنه » .

أمر السلطان باعدام قادة هذه الثورة ، ونفى ما بقى من العبيد الى بلاد العثمانيين ، وانهى وجود العبيد « الشناترة » من مصر ، وكثيرا ما كانت تعلق رءوس العربان فى صحارى مصر على البوابة ، وكان بعض الذين يلقون حتفهم على تلك البوابة قد ارتكبوا حوادث طفيفة للغاية ، ونلاحظ تكرر ذلك بعد الغزو العثمانى لمصر عام ٩٢٢ هـ ، اذ يشنق ملك الامراء خاير بك فلاحا فقيرا لأنه اقتلع عودين من خيار الشنبر (نبات طبى) ، وطوال الاحتلال العثمانى تتكرر حوادث الشنق ، والاعدام ، بجوار البوابة لاتفه الاسباب ، حتى يذكر لنا الجبرتى معلقا ، « مع ان الزيادة سارية فى المبيعات والمشتروات من غير انكار » ، لكنه الظلم الفادح ، ولا معقولية ماجرى خلال هذا العصر ، الى جانب ذلك فان بعض الذين سلكت حياتهم طرقا غير عادية ، كانوا أحيانا يلقون مصيرهم فوق هذه البوابة الدموية ..

الصعود والهبوط

فى يوم الاثنين الثالث والعشرين من محرم سنة ٩٠٩ هـ ، أمر السلطان الغورى ، بشنق على بن أبى الجود على باب زويلة ، فشنق ، وظل جثمانه معلقا لمدة

ثلاثة أيام ، كان على بن أبى الجود قد وصل الى أعلى مناصب الدولة ، تولى نظارة الاوقاف وعـدة مناصب أخرى هامة فى الدولة ، منهـــــا ديوان الوزارة ، والاستادارية ، وأصبح متصرفا فى أمر المملكة ، واظهر الظلم الفاحش بالديار المصرية ، فخاف الناس منه ودخل فى قلوبهم الرعب الشديد منه ، وكان على هذا اصله من العامة ، وكان أبوه نجارا اسمه المعلم حسن ، ثم بدا يصنع الحلوى وسمى نفسه « أبو الجود » ،واتخذلهمكانا أمام حمام شيخو ، واستمر حتى مات ، عندئذ حل مكانه ابنه على ، الذى كان يقلى الشبك بيده ، ثم بدأت رحلة صعوده عندما التزم بتوريد مال معين على أحد المناطق الصغيرة ، وهجر بيع الحلوى ، ثم التحق بوظيفة صغيرة عند تغرى بردى الاستادار ، ثم انتقل للعمل مع الامير طومان باى ثم انتقل للعمل مع الامير الغورى قبل أن يتولى السلطنة ، فلما أصبح سلطانا اصبح مقربا منه ، وجاء على الناس بالظلم ، ويبدو ان البعض صار يدس له عند السلطان حتى وقع المحظور فى رمضان سنة ٩١٨ هـ ، عندما تغير خاطر السلطان عليه ، وتلك العبارة « تغير خاطر السلطان » يوردها ابن اياس ، وسائر المؤرخين عندما ينقلب مزاج السلطان على أمير مقرب ، أو صديق له ، فيتبدل حال الاخير عندئذ ، وينقلب ، لقد قبضوا على حاشية على ابن أبى الجود ، وأحاطوا على موجوده (اى على ثروته) ، وسلمه السلطان الى موظف جديد صاعد هو الزينى بركات بن موسى ، ليعاقبه ، ويظهر ما خفى من أمواله ، ثم قام السلطان بضربه بنفسه ،

ثم سلمه الى الوالى ليواصل تعذيبه ، ثم أمر باعدامه ، ثم .. استقر جثة هامدة فوق باب زويلة .

معتقدات

واحاط الناس باب زويلة بالعديد من المعتقدات ، فقد اعتقد الكثيرون انه مركزا لاقامة القطب المتولى ، ويقول ادوارد لين فى كتابه « المصريون المحدثون » ان بعض المشايخ أخبروه بوجود القطب المتولى الذى يراقب الاولياء جميعهم ، مثل النقباء والانجاب ، وكثيرا ما يظهر القطب، لكنه لا يعرف ، وهو يظهر دائما متواضعا ، رث الثياب، ولا يشتد فى مؤاخذة من يخـــالف الدين أو يناصره بالتقوى ، ومع انه يختفى دائما ، فان أماكن وجـــوده معروفة ، لكنه قليلا ما يظهر فيها ، والمعتقد ان القطب يكون فوق الكعبة ، وهو يصيح مرتين فى الليل قائلا : « يا أرحم الراحمين » . ويسمع المؤمنون حينئذ ذلك الدعاء من مآذن الكعبة ، ان سطح الكعبةهوالمركزالرئيسى الذى ينطلق منه القطب ، لـكن بوابة زويلة هى مكانه المفضل فى القاهرة ، ومن هنا أصبح الناس يسمونها « بوابة المتولى » وحتى الآن يطلق عليها ذلك الاسم ، ويقرأ المارة الفاتحة عند مرورهم بها ، ويتصدق البعض على الشحاذين الجالسين هناك ، ويذكر الجبرتى فى حوادث شهر رمضان سنة ١١٢٣ هـ ، ان واعظا روميا جاء وجلس فى أحد المساجد ، وراح يهـاجم ما يفعله المصريون عند ضرائح الاولياء عن ايقاد شموع وقناديل ،

وتقبيل أعتـــابهم ، وقال ان ذلك كفر ، وهاجم وقوف الفقراء عند باب زويلة فى ليالى رمضان ، وتسبب فى فتنة كبيرة بالقاهرة ، ويصف ادوارد لين أحد الشحاذين الذين كانوا يجلسون عند الباب ، ويقول ان الناس كانت تعتقد انه من خدام القطب ، ويدق المصابون بالصداع مسمارا فى الباب لفك السحر ، أما المصـــابون بوجع الاسنان فيخلعون سنا ويولجونها فى أحد الشقوق ، أو يلصقونها به بأى حال آخر ، وكثيرا ما يحاول بعض الفضوليين الاختباء وراء الباب ، آملين عبثا اختلاس النظر الى القطب ، فى لحظة من لحظات ظهوره النادرة ، ويصف ستانلى لين بول (١) معتقدات الناس فى القطب المختفى عند الباب ، ويقول ان له قدرة عجيبة فى التنقل من مكان الى آخر مختفيا عن الانظار ، والمؤمنون يسبحون أثناء مرورهم بالباب ، بينما يدفع الفضول غيرهم الى النظر خلف الباب لعلهم يرونه ، ويستنكر ستانلى لين بول ما يقوم به القاهريون من دق للمسامير ، والتماس العلاج عند البوابة ، ويبدو ان من كان يرتبط بالبوابة يصبح مقدسا ، فى أحداث سنة ١١١٥ هـ ، يذكر الجبرتى موت الشيخ المجذوب أحمد أبو شوشة خفير باب زويلة وكانت كراماته ظاهرة ، وكان يضع فى فمه مائة ابرة ، ولا تعوقه عن الاكل ، والشرب ، والكلام .

وتذكر مراجع تاريخية أخرى ان سبب تسمية البوابة بالمتولى كان لوجود متولى حسبة القاهرة على مقربة من المكان ، ولكنى أرجح السبب الاول الخاص باقامة القطب

(١) سيرة القاهرة ــ ستانلى لين بول ــ ص ٣٤ .

المتولى ، خاصة واننى سمعت الكثير من روايات أهالى المنطقة ومعتقداتهم فى البوابة حتى يومنا هذا .

لقد احتلت هذه البوابة موقعا فى الادب المصرى ، فثمة رواية كاملة تدور حولها ، كتبها محمد سعيد العريان ، وتجرى أحداثها خلال السنوات الاخيرة للسلطنة المملوكية ، المصرية ، قبل زوالها على أيدى العثمانيين ، وفى ألف ليلة وليلة نجد باب زويلة مسرحا لاحدى حوادث النشل ، وتدور « السكرية » أحد أجزاء ثلاثية نجيب محفوظ الشهيرة فى حارة تقع ملاصقة لبوابة زويلة .

وحتى الآن لا تزال البوابة العتيدة ، تقوم فى وسط البيوت التى تزاحمت حولها ، وكادت تخفى معالمها ، رمادية بأحجارها ، قانية بتاريخها ، يلفها غموض وابهام لكثرة ما نسج حولها من أساطير ، لكن أبرز ما يتعلق بها ، ان الآلاف لاقوا حتفهم هنا فوقها ، بعضهم من أفراد الشعب المصرى المغلوب على أمره . والآخرون ارتكبوا جرائم قد تكون صغيرة أو كبيرة ، وأمراء متمردون ، واسرى انتهت حياتهم فى ذلك المكان ، وسلطان واحد، شنق وهو يدافع عن آخر ما تبقى فى سلطنة مصر المستقلة ..

مجالس السلطان الغوري

.. نحن الآن فى القرن العاشر الهجرى .. السادس عشر الميلادى .

على مهل ينزل الليل فوق القاهرة أبواب الحارات اغلقت وتجمع خلفها السكان يتسامرون . بعض المقاهى لا تزال ساهرة مضاءة بنور القناديل أما شارع الصليبة وهو الشارع الرئيسى فى قاهرة ذلك الزمان. فالدكاكين لا تزال مفتوحة ، لم تغلق أبوابها بعد ، دكاكين المشبك والحلوى والاطعمة المختلفة ، والحرفيون الذين يستكملون أعمالهم التى لم يتسع لها النهار . بين الحين والحين يعبر الطريق مملوك يركب جوادا ، أو كوكبة من حرس السلطان الخاص . لا يتوقفون انما يتجهون الى ميدان الرميلة ، حيث يصعدون الى القلعة بينما يعلو صوت طبل وابواق نحاسية أحد الامراء يدق الطبل أمام داره ، ويجب أن نعرف انه كلما علا صوت الطبل وكثر ، دل هذا على مكانة ومقدار الامير .

عموما .. واضح ان الجو وديع . مستقر لم تحدث اليوم فتن بين الامراء ، لم تقع مشاجرات ، فى الاسواق،

القاهرة آمنة ، انها احدى الليالى الهادئة التى تخللت حكم السلطان الغورى ، اذن ، لنمض عبر الطرقات الى ميدان الرميلة « القلعة حاليا » ، نصعد الى البلاط السلطانى ، فى الطريق الى القلعة نلمح القاهرة فى الغروب ، ان القاهرة تبدو فاتنة من فوق هذا المرتفع ، ومصدر الفتنة كثرة المآذن الرشيقة ، كل منها يتكون من ثلاثة أدوار أو أربعة من الشرفات ، وتبدو المآذن وكأنها مضفورة بالخضرة الجميلة التى تتحلى بها أشجار النخيل الكبيرة التى تنمو فى حدائق المدينة ،وهذا جميعه يخلق جوا من التناسق الرائع .

اننا الآن نتجه الى قلب قلعة السلطان التى تبلغ فى اتساعها مساحة مدينة (أورليان) نمر بساحة بها نحو خمسمائة مملوك فى تشكيل عسكرى ، ثيابهم طويلة بيضاء ، قبعاتهم مستديرة خضراء وسوداء ، ثم نمر بساحة أخرى بها نحو خمسين موسيقيا بآلات مختلفة ، ونسير فى عدد من الممرات ذات القباب بين صفين من المماليك ، يواجه كل منهما الآخر حاملين فى أيديهم الرماح .

ندخل الآن الى قاعة « الدهيشة » ، حيث تقام السهرات السلطانية ، بريق الفضة والذهب يكاد يأخذ ابصارنا الارض كلها مغطاة بالسجاد الثمين ، هنا لابد ان ننحنى ، السلطان الغورى يجلس فوق مرتفع مغطى بالسجاد الحريرى ، وأمامه على الارض سجادة لا تقل مساحتها عن عشرين قدما مربعة ، ملابسه من الحرير الاصفر ، وعلى رأسه عمامة مصنوعة من نسيج رفيع

من الهند ومشكلة على هيئة ست قمم ، اثنتان الى الامام واثنتان الى اليمين ، واثنتان الى الشـــمال الحاضرون الليلة كبار العلماء والادباء فى السلطنة ، الشيخ حسين جلبى ، والشيخ شمس الدين الســـمادسى ، والشيخ حسين بن محمد الحسينى ، وهو الذى ألف كتابا فيما بعد أن جمع فيه ما دار فى هذه السهرات .

قبل أن تبدأ الجلسة ، نطيل النظر الى الســلطان الاشرف قنصوه الغورى ، انه طويل القــامة ، غليظ الجسد ، ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه جهورى الصوت ، مستدير اللحية ، لا يظهر الشيب بلحيته الا قليلا ، واضح من ثيابه انه يميل الى الابهة فى أصابعه خواتم الياقوت الاحمر ، والفيروز والزمرد، والماس ، نعرف انه مغرم بشم الرائحة الطيبة ، واضح هذا من تلك الرائحة الناعمة الجميلة التى تملأ المكان ، وهنا لندع ابن اياس ، المؤرخ المصرى العظيم ، وشاهد العصر ، يقدم لنا وصفا لمزايا السلطان الغورى .

يقول ابن اياس :

« كان الغورى رضى الخلق ، يملك نفسه عند الغضب، وكان له اعتقاد زائد فى الصـــالحين والفقراء ، وكان ماسك اللسان عن السب فى شدة غضبه ، وكان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء ، وله نظم باللغـة التركية ، وكان قريبا من الناس يحب المزاح والمجون فى مجلسه ، غير كثيف الطبع فى ذاته ، وكان عنده لين جانب ورياضة بخلاف طبع الاتراك ، ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس » .

وبالتأكيد ، هذه صفات تدل على رقة الطبع ، وحب الحياة ، ويمكننا الاطمئنان جدا الى وصف مؤرخنا ابن اياس ، ويؤكد هذا ان جميع الحوادث فى تاريخ السلطان الغورى تجسد وصف ابن اياس ، بالاضافة الى جرأة مؤلفنا التى كانت لا تدعه يجامل السلطان فعندما كان يأتى عملا فيه ظلم للخلق من جانب الغورى، كان ابن اياس ينقده بجرأة تدعو للاعجاب ، ان السلطان الغورى الذى يتصدر الآن قاعة الدهيشة ، لا يدير ملك مصر وحدها ، انما الاقطار التى تتبعها ايضا ، أى الشام ، وبلاد العرب ، وبعض الجزيرة الفراتية ، وبلاد العواصم وهى الجزء الجنوبى من آسيا الصغرى ، وفى عهده كانت الاساطيل المصرية التى وصلت الى سواحل الهند تتصدى للبرتغاليين الذين نجحوا فى الوصول الى المحيط الهندى عن الطريق الجديد الذى اكتشفه فاسكودى جاما عبر رأس الرجاء الصالح ، وكان بعض أمراء الهند يستنجده على الفرنج فيرسل الاساطيل والجند فى الحين بعد الحين ، بالاضافة الى هذا كان السلطان الغورى يواجه الدولة العثمانية الوليدة ، التى دأبت على التحرش بحدود مصر .

كانت الفترة تنبىء بوقوع احداث جسام ، وبالتأكيد فان هذه الامور كلها تشغل بال السلطان الغورى ، تضج بها المكاتبات اليومية ، والرسائل الى الولاة ، وأمور الجيش ، لهذا لا بأس من عقد هذه السهرات ، لتخفيف الواقع الصلب ..

سهرات السلطان عديدة ، والمسائل التى تناقش فيها متنوعة ، لهذا آثرنا اعادة صياغة المسائل التى طرحت فى هذه السهرات ، فى ثلاث سهرات ، خصصنا لكل منها موضوعا شبه موحد ، ودليلنا ومرشدنا الى مضمونها هو الشريف حسين بن محمد الحسينى ، الذى واظب على حضور السهرات ، وتدوين ما طرح بها ؛ وسجل هذا فى كتاب أسماه «نفائس المجالس السلطانية فى حقائق الاسرار القرآنية» ، والكتاب الثانى أسمه «الكوكب الدرى فى مسائل الغورى» .

لم يتبق الكثير على بدء السهرة الاولى ، والتى خصصناها للالغاز التى طرحت ..

السهرة الاولى :

والشيخ عبد الرازق ، هو الذى ام المصلين الليلة فى صلاة العشاء ، يبدأ المجلس بطرحه لغزا صيغ شعرا .. قال الشيخ عبد الرازق :

الا فأخبرونى أى شىء رأيتمو
من الطير فى أرقى الاعاجم والعرب

فيؤكل مطبوخا لذيذا وتارة
فيؤكل مشويا اذا اشتد فى اللهب

وليس له ايد ، وليس له فم
وليس له رجل وليس له ذنب

وليس له مخ وليس له دم
وليس له عظم وليس له زغب

وهنا قال السلطان : هو البيض ..

وقبل الاسترسال فى السهرة ، يحق لنا أن نبدى ملاحظة ، فكما سبق القول اعتمادنا الاول والاخير هنا على الكتابين السابق ذكرهما ، ولكن يبدو ان كلا المؤلفين وكلاهما شيخ جليل ، قد جاملا السلطان أكثر من اللازم، فالسلطان هو الذى يحل الالغاز كلها ، وهو الذى له القول الفصل فى المسائل الفقهية ، ورأيه هو النافذ . ولكن ماذا نملك ، لا نستطيع الا العودة لنسجل ما أعقب حل اللغز الخاص بالبيض ..

قال أحد شيوخ الحاضرين :

هناك حكاية مناسبة لهذا اللغز ، اذا اجتمع جماعة من الشعراء فى خدمة سيف الدولة وقصدوا ايذاء المتنبى ، فقالوا اننا نبيض فى هذا المجلس ، وكان مع كل واحد منهم بيضة مخفية ، فلما جاء دور المتنبى صاح صيحة الديك ، فقال السلطان : ما هذا ؟ قال : لابد لهذه الدجاجات من ديك . وهنا طرح اللغز الآتى :

وميت يقبر طعمه عند رأسه
اذا ذاق من ذاك الطعم تكلما
يقوم ويمشى ناطقا بفصاحة
ويأوى الى القبر الذى كان قيما

وأطرق السلطان لحظة ثم قال : (هو القلم) . ثم تتابعت الالغاز :

خليلان ممنوعان من كل لذة
يبيتان طول الدهر مجتمعان
اذا أمسيا كانا على الناس حارسا
وعند طلوع الفجر يفترقان ؟؟

قال السلطان : هو الباب ..

اللغز الرابع :

وذى سـفر لا يحب المقـام
ولا يسـام السير فى كل حال
يبيد الليـالى فى مره
وتضنيه فى مرهن الليـالى

قال : هو القمر .

اللغز الخامس :

واكلة بغير فـم وبطـن
لهـا الاشجار والحيوان قـوت
اذا أطعمتهـا نعشت وعاشت
وان أسقيتها ماء تمـوت

قال : هو النار .

وهنا قال احد مشايخ الحاضرين حكاية تناسب المقام:
قيل لكسرى أنو شروان ، ان فى عسـكر سلطان السودان والحبش أربعمائة ألف رجل فقال أنو شروان لهم ، لا تخافوا لان النار القليلة تفنى الحطب الكثير ، وقيل أيضا للاسكندر .. ان فى عسكر دارا ملك الفرس ثلاثمائة ألف رجل ، فقال الاسكندر الاكبر بكثرة الغنم لا تخوفوا القصاب .

وهنا أصغى السلطان ليستمع الى اللغز السادس :

أتى بلغـز ثلاثى يعجـزنى
وظن ذلك بحرا لست أسـلكه
وقال فسره شمس الـدين قلت لا
مولاى لغـزك ليس الشمس تدركه

قال : هو القمر .

وهنا دخل الشيخ ابن النحاس ، بعد أن حيا السلطان وجلس ، قال :

« كنت فى خدمة قاضي كاتب السر ، فقال لى : تعال الى تفرج على كسر النيل ، وأنا ما رضيت ، لان مولانا السلطان هو البحر الكبير ، وبحر النيل فى هذه الليلة وهذا البحر ، بحر مولانا السلطان لا نرى منه الا جبر الخواطر » .

وهنأ الحضور بعضهم فالليلة تم كسر السد المقام عند فم الخليج ، لقد أوفى النيل ، ثم القى اللغز السابع :

ما اسم شيء حسن شكله
تلقه عند الناس مخزونا
نراه معدودا فان زدته
واوا ونونا صار « موزونا »

قال : هو الموز .

اللغز الثامن :

لى جمع أصحاب أعشقهم وأهواهم
ولا اشتهى قط أنظرهم ولا أدراهم
ما طاب لى عيش في الدنيا برؤياهم

قال السلطان : هو الاسنان .

السهرة الثانية

نحن الآن فى قاعة الاشرفية ، احدى القاعات الرائعة فى قلعة الجبل ، الحضور لم يتغيروا ، الخليفة والعلماء وكبار رجال السلطنة ، وأمام الصلاة كان الليلة الشيخ كمال الدين البرقوقى ، السلطان يتصدر القاعة ،

مملوكان يقفان فوق رأسه ، يحملان رمحين من الذهب الخالص ، بين الحين والحين تهب نســــمات خفيفة : الليلة هواؤها عليل ، لا عجب ، فالوقت خريف ، وسهرة الليلة تعد بالكثير فما سيدور الآن ، يتنــــاول النوادر والحكايات والعظات والعبر .

بعد أن قرأ الشيخ البرقوقي البسطة ، قال :

« والله ما في الدنيا أحسن من الادب ، الادب جوهرة والعقل معدنها ، كان السلطان محمود يلعب الشطرنج مع صاحبه اياس ، كان يقــول له : يا سيدى العب . يا أمير العب ، فقال اياس ، يا مولانا السلطان ما أنا مستحق لهذا التعظيم ، فقال له السلطان ، قصــدى مداومة لسانى على الــكلام المليح ، واجتناب الــكلام القبيح .

وهنــــا أبدى الحضور استحسانهم ، وقال الشيخ السماديسى ..

« حدث ان ملك الهند فقد ســــمعه وصار أصم ، فاشتد حزنه لما دخل عليــــه أهل مملكته لتعزيته فى سمعه ، قال حزنى ليس بسبب اصابتى ، بل بسبب انى ما أقدر على ســــماع استغاثة المظلوم ، ولكن اذا ما ذهب سمعى لم يذهب بصرى ، لهذا أمرت ان يلبس كل مظلوم ثوبا أحمر حتى اذا رأيته عرفت انه مظلوم فأقربه منى وأنصفه ..

وهنا قال السلطان الغورى ..

« قال النبى صلى الله عليه وسلم ، المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .. فى هذه اللحظة وصل

الشيخ سعيد ، أحد ندماء السلطان ؛ وكان مشهورا بخفة دمه ، واطلاعه الواسع على النوادر ، والحكايات ؛ وبعد أن قبل الارض بين يدى السلطان جلس مسلما على أصحابه ، ثم قال ..

« سمعت الآن حكاية ظريفة أرى الا أحرمكم منها ..

نظروا اليه ضاحكين ، استمر الشيخ سعيد ..

« ركب أحد أثرياء الهند مع الوزراء فلما وصلوا الى زريبة البقر ، وجدوا البقر يصيح ، فسألوا الثرى وكان اسمه الخواجا محمود ، ما يقول البقر !!

فقال ، البقر يقول لى ، اخرج من بين الحمير وتعال عندنا ..

وضج المجلس بالضحك ، اهتز كرش السلطان الغورى، وبعد أن هدأ قال ..

« ذكرنى هذا بحادثة جرت مع السلطان قلاوون ، اذ ادعت جماعة محبته حبا شديدا ، فقال لهم ، ان كنتم تحبوننى أرموا أرواحكم من القصر ، فقالوا ، باسم الله ، وجروا من أول سطوح القصر الى نهاية اطراف القصر ، ووقفوا قائلين : « يا مولانا السلطان محبتنا لك الى هذا الوضع ، فمن يزيد علينا قدما فالمحبة له .. » .

وعلت ضحكات المشايخ والامراء ، وصفق بعضهم طربا واستحسانا ، ومن بين الحضور علا صوت الشيخ السماديسى ..

« قرأت أن بعضهم سأل أفلاطون ، ما علة ملوحة البحر !!

فقال لهم : بينوا لى فائدة العلم بهذا حتى أبين لكم علته ..

وارتسمت علي آلوجوه ابتسامات خفيفة ، وهنا قال الشيخ سعيد ..

« تعرفون ابن عثمان طبعا . حدث إنه أمر ناصر الدين ــ وناصر الدين يماثل جحا عند العرب ــ ان يشوى له أوزا ، فشوى وأكل منه رجلا ، فسأل السلطان عن رجل الاوز ، فقال ما يكون للأوز غير رجل واحدة ، فسكت السلطان ، وبعد قليل ركب السلطان ومعه الشيخ ناصر الدين وبالصدفة قابلوا أوزا يقف على رجل واحدة ، فقال ناصر الدين للسلطان أنظر كل واحدة منها برجل واحدة ، فدق السلطان الطبل ، فمدوا أرجلهم ، قال السلطان للشيخ ناصر الدين ، لقد أكلت رجل الوز وكذبت ، بسرعة قال ناصر الدين ، يا مولانا انت لم تدق طبلك ساعتها حتى يمد الوز المشوى رجله الملتم ..

وهنا قال السلطان ضاحكا ..

« والله تذكرنى يا شيخ سعيد بقول أحد الحكماء : الهزل فى الكلام كالملح فى الطعام .. وعلا صوت الشيخ البرقوقى بنادرة ..

« قرر السلطان محمود بقاء اسمه الى يوم القيامة ، فقيل له ، ابن العمارات العالية ، فقال ، تخرب بعد ثلاثمائة أو أربعمائة سنة ، استقر رأيه على تأليف الكتب باسمه . فأمر شاعره الفردوسى بنظم ملحمة طويلة اسمها « الشاه نامه » ووعد الفردوسى بقطعة ذهب ازاء كل كل بيت ، فلما اتم الفردوسى الملحمة ، قال الوزير للسلطان محمود ، يكفيه قطعة فضة فى كل بيت ، وكان عدد الابيات ستين ألفا ، فأرسل السلطان ستين الف قطعة

فضة الى الفردوسى ، وكان لحظتها فى الحمام ، فأعطى صاحب الحمام عشرين الفـــا كأجرة له ، وشرب خمرا بعشرين الفا ، وأعطى الباقى بقشيشا لمن جاء بها ، فلما سمع السلطان بهذا ، أمر بقتله ، واختفى الفردوسى ، وأنشد يهجو السلطان ، وأضاف الهجاء الى ملحمـــة (الشاه نامه) ، وعندما أطلع السلطان على هجاء الفردوسى اغتاظ جدا وأمر بقتل الوزير الذى أشـــار اليه بابدال الذهب بالفضة ، وأرسل ستين الف قطعة ذهبية الى مدينة الفردوسى ، فلما وصلت الفلوس الى باب المدينة كان تابوت الفردوسى يخرج من الباب الآخر ، فعرضوا الذهب على ابنته لكنها رفضت ، فأمر السلطان بصرف الفلوس على العمارة لأجل روح الفردوسى .. » .

قال السلطان الفورى متمهلا :

أذكر هنا قول على بن أبى طالب رضى الله عنه ، شرف الشخص بالعلم والادب ، لا بالاصل والنسب ..

مصمص القوم شفاههم ، وسادت لحظة هدوء ، قطعها الشيخ سعيد بضحكة عالية ، قال بعدها ..

سمعت انه كان هناك رجل طويل الانف ، مدح نفسه عند جماعة بأنه رجل متحمل للمكاره ، قيل له لولا صبرك على المكاره لما قدرت أن تحمل هذا الانف ستين سنة ..

***

هنا زعق الامير يشـــبك زعقـــة هائلة ، صاح .. « احترم نفسك يا شيخ سعيد .. اكتسى وجه الشيخ لونا أصفر ، ولاحظ الحضور أن أنف الامير كبير حقا ، وابتسم بعضهم ابتسامات خفيفة ، حتى السلطان الفورى

نفسه ، نظر الشيخ مذعورا الى السلطان مستجيرا به ، اشار السلطان .. « اهدأ يا يشبك .. الشيخ سعيد لا يقصد ..

نظر الامير الى السلطان ، قال والغضب فى صوته ..

« والله لولا وجودك يا مولانا » ..

هنا علا صوت الشيخ برقوقى ..

« اهدأوا يا جماعة ، اذكر قول سيد العرب والعجم ، صلى الله عليه وسلم ، سيد الكلام العربية ، وسيد كلام العربية القرآن ، وسيد الجبال طور سيناء ،وسيد البلدان مكة ، وسيد السودان لقمان ، وسيد فارس سلمان ، وسيد الروم صهيب وسيد الحبشة بلال ، وسيد القوم خادمهم ..

قال السلطان الغورى ، بصوت عميق ..

قرات فى أخبار السلطان محمود : انه خرج ليلا فى زى فقير ، فرأى عجوزا مهمومة فقال : ما سبب همك !؟ قالت يجىء جنـدى ويزنى ببنتى كل ليلة ، قـال : ما لباسه وما زيه !؟ قالت كذا وكذا ، ومضى السلطان وجمع الاخبار حول حقيقة هذا الشخص ، وفى الليلة التالية خرج السلطان متخفيا أيضا ، لكنه يحمل سيفه ، جاء الى بيت العجوز ، قال يا عجوز اطفئى السراج ، وقتل الجندى الذى دخل قاصدا الاعتداء على ابنتها ، ثم قال السلطان ، هل عرفت من هو !؟ قالت لا .. لم أعرفه ، قال السلطان ، هذا ابنى ، وأنا السلطان محمود، وقد أمرتك باطفاء السراج حتى لا أنظر وجهه فأرحمه ..

أبدى الحاضرون استحسانا ، وقال الشيخ الدميرى ..

اصلاح الرعية احسن من كثرة الجنود والمملكة ..

وهنا انفض المجلس ، واذن السلطان الغورى للحضور بالانصراف ، على أن تكون السهرة التالية مخصصة للمسائل العلمية ، والفقهية ، وعلى الطريق النازل الى المدينة ، مشى العلماء والامراء الى اصطبل الخيول السلطانية ليركبوا الى بيوتهم ، بينما النسيم يهفو من ناحية النيل فوق المدينة النائمة فى دعة .

السهرة الثالثة :

بدأ السلطان الغورى بتوجيه السؤال الاول الى الحضور :

ــ ما الحكمة فى الكسوف والخسوف ؟

قال الشيخ كمال الدين :

ــ هما آيتان من آيات الله ، كما ورد فى السنة .

اجاب الشيخ السماديسى اجابة ثانية ، وكانت له معرفة بالعلوم ..

ــ سبب الخسوف حيلولة الارض بينه وبين الشمس ، والقمر مظلم ، فيبقى القمر بلونه الاصلى اسود .

قال الامير طغلق ، المسئول عن تشييد المبانى السلطانية :

ــ هذا مخالف لقوله تعالى (وهو الذى جعل الشمس ضياءا والقمر نورا) ..

وهنا سأل السلطان الغورى ..

ــ ما الفرق بين الضوء والنور ..

قال الشيخ السماديسى ..

ـ الضوء هو النور الغالب القاهر المحرق بخلاف النور ، فانه يطلق على غير المحسوس أيضا .. كنور القلب ، ونور الايمان ، بعكس الضياء ..

سكت السلطان الغورى لحظة ، أطال النظر الى سقف القاعة المنقوش بنقوش دقيقة ، أغصان متشابكة ، مطلية بالذهب ، مطعمة بالصدف والفيروز ، فوق القاعة والقلعة والمدينة تعلو السماء الليلية مرصعة بالنجوم .. سأل السلطان ..

ـ ما سبب خضرة لون السماء ؟

قال الامير يشبك :

ـ انما جعلها خضراء لتكون مناسبة للبصر ، لان الاطباء يأمرون بادمان النظر الى الخضرة ليكون فيه قوة للبصر ، وقيل خضرتها من جبال قاف ، لانها من زمرد أخضر ، وقيل من خضرة أشجار الجبل المذكور ..

بعد لحظات ، سأل الشيخ البرقوقى .. !

ـ قال أحد السلاطين القدماء ، معنى العيد فى اللغة هو السرور ، فسرور المسلمين لذهاب رمضان محير ، وهو الشهر الذى تغلق فيه أبواب جهنم ، وتفتح ابواب الجنة ؟؟ .

فالقياس الا يفرح المؤمن بذهاب مثل هذا الشهر ؟؟

وهنا أجاب السلطان الغورى ..

ـ فرح المؤمنون لأجل انهم أدوا هذه الفريضة آداء كاملا ووصلوا الى درجة الصائمين الكاملين ، بسبب انتهاء شهر رمضان ..

سأل الشيخ السماديسى :

ـ رجل مكره على سب النبى فالاولى له ان يرتد باللسان او يصبر على الضرب حتى الموت !!

قال السلطان الغورى :

ــ الاولى الصبر ، لو وقعت انا ، والعيـــــاذ بالله ، مجبورا ، مكرها على سب النبى ، اختار الموت ولا اسب النبى ..

قال الامير يشبك :

ــ قال تعالى « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » ، ظاهر الآية يدل على أن المختار السب !!

قال السلطان ..

ــ المراد من الآية الكريمة الرخصة فى الجملة لا أن السب واجب عليه ، ولكن المفروض عدم السب نهائيا ، والصبر على الضرب كما ذكره النووى فى الروضة ..

قال الشيخ سعيد بصوت عال ..

ــ اذا دخل اربعون نفسا على مولانا السلطان ، الذى دخل أولا أخذ دينارا ، والذى دخل ثانيا أخذ دينارين .. والذى دخل ثالثا اخذ ثلاثة دنانير ، الى الشخص الاربعين فقد أخذ أربعين دينارا ، اذن كم يكون المجموع .. ؟

قال السلطان ..

ــ المجموع سبعمائة وثمانون ..

وعاد الشيخ سعيد يسأل ..

ــ اذا وقع من يد شخص لؤلؤة فابتلعتها نعامة ، فما الحكم فى .. ؟

قال السلطان الغورى :

ــ اذا كانت قيمة اللؤلؤة أكثر تذبح النعامة ، وان كانت قيمة النعامة أكثر من اللؤلؤة تترك .

وهنا سأل السلطان ..

ـ من بنى الاهرامات ؟

قال الامير يشبك ..

ـ ذكر الشيخ جلال الدين السيوطى ان الاهرامات بنيت قبل الطوفان ، لانها لو بنيت بعده لكان علمها عند الناس ، وقيل بناها شداد بن عاد ، وقيل سوريد بن صلهوق ، وكان ملكا لمصر ، وقد رأى حلما فى منامه ملخصه ان الارض انقلبت بأهلها وفنى كل شىء ، وعندما استيقظ جمع كهنته فتنبأوا بالطوفان ، فأمر عندئذ ببناء الاهرامات وملأها بجميع ما كتبه الحكماء فى العلوم ووضع فيها أصناف الاسلحة ، والادوية والعقاقير ، وعين لكل هرم حارسا حتى لا يقترب منها أحد قط ، وقيل ان الاهرام عليها كتابة معناها « أنا سوريد الملك بنيت الاهرام فى ست سنين ، فمن أتى بعدى وزعم انه مثلى فليهدمها فى ستين سنة ، والهدم أيسر من البناء .. » .

وعند هذا الحد من حديث الامير يشبك عن الاهرامات، نفارق السهرة عائدين الى المدينة ، فالسهرات تطول ، ولكن الموضوعات لا تخرج عما أوضحناه سابقا ، وأثناء نزولنا الى القاهرة عائدين من قلعة الجبل يتردد فى أذهاننا حديث الامير يشبك ، بالطبع لم يكن التاريخ الفرعونى معروفا لاهالى العصر ، لكن كانت الآثار القائمة فى الوادى ، تحير الاهالى برموزها ورسومها ، من هنا صاغ الشعب تاريخا أسطوريا لمصر ، يمتزج فيه الخيال باللاوعى الجماعى للشعب المصرى والذى يختزن احداث التاريخ القديم ولكن فى صورة أسطورية لا علاقة لها بالواقع والتاريخ الحقيقى ..

لا تفارقنا هيئة السلطان الغورى ونحن نفارق عصره ، هذه الفترة التى تثير الخيال الانسانى ، بكل ما حوته من مواكب ســـــلطانية ورياضة المماليك وألعابهم فى الساحات ، واحتفالات الاهالى ، والمواسم ، ولهو الشعب وايقاع حياته اليومية ، وكدحه وكده من أجل صناعة الحضارة .

كانت فترة حكم السلطان الغورى آخر سنى هذا العصر الزاهى البراق ، عصر السلطة المملوكية ولنذكر فى نهاية هذه السهرات ، ان السلطان الغورى ، خرج مدافعـــا عن ملكه ، وعن مصر ، فى جيشه المملوكى ، متصـــديا للعثمانيين فى مرج دابق ، وانه حارب ، ولكن الخيانة هزمته ، فسقط شهيدا ، ولم يعثر على جثته ، ولم يدفن حتى الآن فى قبر ، هذه القبة الشهيرة التى تقـــــوم فى مدخل شارع الغورية ، والتى أنفق عليها وبناها ليدفن فيها ، ولكنه مات شهيدا غريبا فى سهول حلب . .

النشو

يفصلنا عن شرف الدين عبد الوهاب النشو سبعة قرون هجرية ، مات الرجل منذ زمن بعيد ، ولكنه لا زال يسعى بيننا هذا ما تقوله سيرته وأفعاله ، وما تقوله سيرة وافعال الكثيرين ممن يعيشون حولنا الآن .

والنشو لم يكن بطلا من أبطال التاريخ ، انما كان رجلا عاديا ، بدأ حياته بخدمة الامراء فى زمن السلطان الناصر ابن محمد بن قلاوون . كان مستخدما عند ابن هلال الدولة شاد الدواوين ، وكان يتردد عليه كثيرا ويبالغ فى خدمته ، واستخدمه ابن هلال الدولة فى الاشغال ، وأثناء ذلك تزوج ألامير أنوك ابن السلطان من ابنة الامير بكتمر الساقى ، وبدأ السلطان يفكر فى شخص بعينه لخدمة ابنه ، ولابد أنه فكر فى النشو ، كان النشو قد وقف بين يديه أكثر من مرة ، وتحدث اليه ، وعندما كان يتكلم الى السلطان كان يركز كل حواسه ، ومواهبه حرصا على أن يترك اثرا فى نفس السلطان ، فى صفر سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة هجرية ، التحق النشو بخدمة الامير انوك ، وكان هذا اول صعوده ..

أصبح النشو قريبا من السلطان بحكم موقعه الجديد ، وصار يتردد كثيراً على القلعة ، يخلو الى السلطان ، ويحادثه فى أمور الدولة ، ويبدى الحرص البالغ على أموال السلطان ، ومصالحه ، وسير العمل فى الدواوين ، وفى أثناء ابدائه والحرص ، كان يرمى عبارات هنا وهناك فى حديثه فى البدآية كان يلفظها بحذر ، ثم لاحظ أن اذنى السلطان مصغيتان اليه ، نزاد من الدس والوقيعة ، وكان مظهره يساعده ، أنه طويل القامة . مليح الوجه ، حلو التقاطيع ، برىء السمات ، أثر كلامه فى نفس السلطان حتى بات مقتنعا أن النشو بحرصه عليه يمكنه ان يحصل له مالا كثيرا ، فاصدر مرسوما بأن يتولى النشو نظارة الخاص ، أى يكون مسئولا عن أموال السلطان وممتلكاته ، وهذه وظيفة هامة جدا ، ولكن النشو لم يهدأ ، ولم يتوقف أخذ يتحدث الى السلطان عن أولاد موظف كبير اسمه التاج أسحق ، راح يحدثه عن الاموال التى جمعوها بالباطل ، وكرههم له ، وكان احد هذين الولدين قد تولى وظيفته فى نفس اليوم الذى عين فيه النشو ناظرا للخاص ، وهو شرف الدين موسى ، لم يمض الا عشرون يوما فقط ، وعمل كلام النشو عمله فى السلطان ، فأصدر مرسوما بعزل شرف الدين موسى من نظر الجيش ، وامر بالقبض عليه ، وعلى شقيقه ، ومصادرة ثروتها ، وكان أسلوب السلطان الناصر قلاوون غريبا فى ضرب موظفيه ، لقد استدعى ابن هلال الدولة ، وأسر اليه أن يمضى ليحاصر بيوت أولاد التاج اسحق بمجرد دخول الامراء البلاط ، وبالفعل دخل الامراء ، وكبار

موظفى الدولة ـ وبينهم شرف الدين موسى ـ الى السلطان، عندئذ التفت السلطان الى القضاة وأخذ فى الثناء على شرف الدين ، وقال فى آخر كلامه :

« أنا رأيت هذا وعملته كاتبى » .

فى هذه اللحظة بالذات كان الجنود يحيطون بيته ، وبيت شقيقه ، وعندما خرج من البلاط ، واتجه الى مقر وظيفته ، كانت العيون تحيطه بالرهبة ، ألم يثن عليه السلطان علنا ، ولكنه ما أن جلس بديوان الجيش حتى بلغه أن الحوطة قد وقعت على بيته ، وأن رسل الديوان على باب الجيش ، وبلغ الخبر أيضا الى أخيه علم الدين ، وفى العصر صعد ابن هلال الدولة بأوراق الحوطة (كشوف جرد المحتويات) وهى تشتمل على أشياء كثيرة جدا ، منها على سبيل المثال ، اربعمائة سروال لزوجة علم الدين، امر السلطان بتسليم الاخوين الى ابن هلال الدولة للتحقيق معهما ، والتوصل الى الثروات المخفية ، واحضرت آلات التعذيب ، من أسواط ، ومعاصير وسئل موسى عن صندوق ذكر انه أخذه من تركة أبيه ، فيه من الجواهر والذهب ما يبلغ مائة ألف دينار ، وكان النشو قد أفضى الى السلطان بوجود هذا الصندوق ، فأنكر ذلك ، وأقسم الايمان المغلظة ، فرق له ابن هلال الدولة ولم يعذبه ، وهنا استنكر النشو ذلك ، وأخذ على ابن هلال الدولة هذه الرقة ، مع أن الرجل هو أول من استخدمه ، وهو ولى نعمته ، واضطر ابن هلال الدولة الى التضييق على موسى ، لينتزع منه كل ما لديه ، ان النشو الآن لا يقيم وزنا لابن هلال الدولة ، انه يتحدث الى

السلطان راسا ، والكلام يخرج من فمه الى أذنى السلطان راسا ، كما أنه لم يكن يدع فرصة الا ويظهر فيهـــا اخلاصه وولاءه عند عودة السلطان من الحج ، تولى النشو الاشراف على مظاهر الاحتفال ، خرج الناس للقـــاء الناصر ، وغلقت الدكاكين والاسواق ، وجمع النشو من الامراء الابسطة ، والمنسوجات الحريرية الثمينة المشغولة بالذهب ، وبسطها فوق الارض امام القلعة ، وحتى مقعد السلطان ، وتمضى الايام ، ونفوذ النشو يقوى ، ويتزايد ، يقول المقريزى فى كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك :

« وفى هذا الشهر كثرت مصادرات النشو للناس ، فأقام من شهد على التاج اسحق انه تسلم من المـــكين الترجمان صندوقا فيه ذهب وزمرد وجـــوهر مثمن ، فرسم لابن الحسنى بعقوبة موسى بن التاج اسحق حتى يحضر الصندوق ، وطلب النشو ولاة الاعمـــال والزمهم بحمـــل المـــال ، وبعث أخاه لكشف الدواليب بالصـــعيد وتتبع مواشى ابن التاج اسحق ، فقدم قنفلى والى البهنسا وقشتمر والى الغـــــربية وفخر الدين اياس متولى المنوفية ، وعدة من المباشرين فتسلمهم ابن هلال الدولة ليستخلص منهم الاموال .

كان النشو اذا اضطهد شخصا فانه يتتبعه حتى يدمره تماما ، ويتتبع أى انسان يمت اليه .. هكذا فعل مع موسى بن التاج اسحق .

يستعين بالأشخاص ذوى السمعة السيئة والاشرار

بدأ النشو يعتمد على أقاربه ، وأرسل أخاه واسمه المخلص الى الصعيد فى مهمة ، عاد منها ليقــدم اليه تقريرا عن ثروات مباشرى الوجه القبلى ، وطلع النشو الى السلطان ، راح يغريه بهم جميعا ، ويتحدث عن اتلافهم مال السلطان ، وهنا صدر مرسوم بالحوطة على جميع مباشرى الوجه القبلى ، واعتقالهم ، وطلب النشو تجـار القاهرة ومصر ، وطرح عليهم عدة أصناف من الخشب والجوخ والقماش ، بثلاثة أمثال قيمتها ، كان يبيع بضائع السلطان بأسعار مرتفعة جدا ، وهكذا يحصل له على أموال طائلة ، فى الوقت الذى بدأ هو بتكوين ثروته ولكن فى حذر شديد ، وكان السلطان الناصر يصدر أحيانا بعض المراسيم التى تتسم بالخير ، وهكذا أصــدر مرســوما بمسامحة الامراء فى الاموال المدينين بها للديوان ، ولكن النشو لم ينفذ هذا المرسوم ، وألزم مباشرى الامراء بتسديد هذه الاموال ، وركب الى السلطان ، وأوضح له قيمة الاموال التى يمكن أن تضيع نتيجة لهذهالمسامحة، وأن مال السلطان يضيع ويتبدد ، وان الــدواوين تسرق بحجة مسامحة الامراء ، وتأثر السلطان بما سمعه ، ومكن النشو من عمل ما يختاره ، والا يسامح أحدا بشىء مما عليه للديوان ، وشق ذلك على بعض الامراء ، فراجع الامير قوصون السلطان ، ولكنه لم يجبه الى شىء ، عنــدئذ كف الامراء عن السؤال ، وعظم النشو فى أعين الناس .

واستعان النشو بالاشخاص ذوى السمعة السيئة ، استدعى الشمس بن الازرق وكان ظلوما غشوما ، فكتب له أسماء أرباب الاموال من التجـــار ، وفرض عليهم قماشا بثلاثة أمثال قيمته . يقول المقريزى :

« وعمت مضرة النشو الناس جميعا ، وانتهى اليه عدة من الاشرار ، ونموا على الكافة من أهل الوجـه القبلى والوجه البحرى ، ودلوه على من عنده شيء من الجوارى المولدات لشغف السلطان بهن ، فحملت اليه عدة منهن بطلبهن من اربابهن ، وسعوا عنده بأرباب الاموال أيضا ، فدهى الناس منه بلاء عظيم » .

وبين الحين والآخر ، كان كبار رجال الدولة يفضون بشكواهم الى السلطان ، ولكنه كان ينهرهم ، ويبـدى الثقة بالنشو ، واذن له فى عمل ما يختاره ، وأن يتصرف فى أمور الدولة كما يشاء وألا يبالى بأحد ، ووعده بتقوية يده ، وتمكينه ، ومنع من يعارضه ، بل ان السـلطان استدعى اخوة النشو وأقاربه ، وعينهم عند كبـــار الامراء ، فجعل المخلص أخ النشو مباشرا عنـد الامير سيف الدين الناق ، واستخدم أخاه رزق الله عنـد الامير ملكتمر الحجازى ، واستخدم صهره ولى الدولة عند الامير أرغون شاه ، وخلع عليهم .

انبسطت يده النشو ، واشتدت وطأته ، واسـتدار ليضرب أول شخص أحسن اليه ، وكان بداية صعوده التفت الى ابن هلال الدولة نفسه .

ابن هلال الدولة
يلزم بيته بتدبير من النشو

أخذ النشو فى التدبير على ابن هلال الدولة ، رتب عليه انه أخذ من مال السلطان جملة ، وانه اهمل فى المحافظة على أمور السلطان ، وانه بسببه ضاع مال كثير ، وانتدب لتحقيق ذلك ثلاثة ،أمين الدولةبن قرموط المستوفى ، والشمس بن الازرق ناظر الجهات ، وشخص ثالث اسمه لؤلؤ الحلبى ، وحدد يوم للمواجهة ، بالطبع رتب النشو كل كبيرة وصغيرة ، انعقد المجلس فى القلعة، وفى البداية برز قرموط ، وواجه ابن هلال الدولة بأنه أهمل الامور ، وبرطل « رشا » بالاموال ، ولم يستمع السلطان الى الباقين ، بل أمر ابن هلال الدولة ان يلزم بيته ، وعين شخصا آخر بدلا منه فى وظيفته ، وأمر بدر الدين لؤلؤ الحلبى باستخلاص الاموال ، قبض على ابن هلال الدولة ، وصودرت أمواله ، وهكذا أجهز النشو على ولى نعمته ، والذى كان وجوده يذكره بأيام الزمن القديم عندما كان موظفا صغيرا فى خدمته .

ثم اختار النشو شخصا قاسيا ، غتيتا ، هو ايدكين الادكش لولاية القاهرة ، وبدأ نشاطه بمهاجمة البيوت ، ومصادرة الاموال ، وصار يتنكر فى الليل ويمشى فى أزقة القاهرة ، فاذا سمع صوت غناء أو شم رائحة خمر هاجم المكان واخذ من أهله أموالا طائلة طبقا لاحوالهم ، وكان النشو يوجهه ، وينفذ أغراضه من خلاله ، ولما تزايد أمر ايدكين ، طلع الامير قوصون وشكاه الى السلطان ، وهنا

تغير السلطان على قوصون وقال له :

« أنتم كلما وليت أحدا ينفعنى أردتم اخراجه ، ولو انه من جهتكم لشكرتم منه كل وقت » .

وفى الحال أصدر مرسوما بأن يتولى ايدكين ولاية مصر ، الى جانب القاهرة ، ولم يجمع الولايتين أحد قبله، وعظم أمر ايدكين ، فى أحد الايام خرج من القاهرة الى قرية النخيلة بالوجه البحرى ، وكانت متنزها للناس، هاجمها وقت الغروب فما قبض على أحد الا وسلبه ثيابه وتركه عاريا ، عرى البلدة كلها عن بكرة أبيها ، وجمع اموالا كثيرة .

غير ان ايدكين لم يستمر طويلا فى منصبه ، ففى أول سنة خمس وثلاثين وسبعمائة هجرية عزل ، ونفى الى الشام ، وكان السبب سعاية عدد من كبار الامراء ضده عند السلطان .

وفى نفس السنة لاحظ النشو أن مستوفى الدولة أمين الدين قرموط يكثر من الاجتماع بالسلطان ، فخاف عاقبة ذلك ، مع انه هو الذى قدمه الى السلطان ، وبدأ يتكلم فى حقه ، وقال انه جمع كثيرا من مال السلطان لنفسه ، فقبض عليه ، وعلى جماعة معه ، وعوقب قرموط وضرب بالمقارع سعيا لاستخلاص اربعين ألف دينار منه ، ولكنه صمد للضرب ، عندئذ قيل انه جلد ، وانه لن يعترف الا اذا ضرب ابنه امامه ، وجاءوا بولده وبدأوا بضربه فلما اشتد البلاء بقرموط ضرب نفسه بسكين فى حلقومه محاولا الانتحار ، ولكنهم انتزعوها منه ، واستمر تعذيبه،وتعذيب ابنه .

فى هذه الفترة قدم الامير تنكر . نائب الشام يوم الاربعاء الحادى عشر من رجب (٧٣٥ هـ) ، وسعى عند السلطان ليفرج عن ابن هلال الدولة ، وساعده الامير قوصون ، وبالفعل استجاب السلطان لهما ، وأفرج عن الرجل ، وكان النشو مسافرا الى الاسكندرية ، وعند عودته فوجىء بالخبر ، وشق عليه الافراج عن ابن هلال الدولة ، وطلع الى السلطان ، وراح يتحدث عن ابن هلال الدولة وخطورته ، ومال السلطان اليه ، فأمر الوالى باحضاره الى القلعة ، وخرج الوالى الى ابن هلال الدولة ، سبه ولعنه ، وأبلغه عن السلطان انه متى اجتمع به احد شنقه ، فنزل وأقام بالقرافة منقطعا عن جميع الناس ، واستمرت سعاية النشو فى الناس ، اتهم والى دمياط بأنه خرب أساسا قديما فى البحر بين البرجين ، كانت عليه طلسمات تمنع ماء البحر المالح عن ماء النيل ، حتى تلفت الطلسمات وغلب البحر على النيل ، فتلفت بساتين كثيرة ، وان الوالى نال من ثمن هذه الحجارة أموالا طائلة ، واعتقل والى دمياط ، وعذب ، واستخرج منه وجمع أموالا كثيرة .

وقبض النشو على امرأة موسى بن التاج ، عاقبها وهى حامل عقوبة شديدة على احضار المال حتى طرحت مافى بطنها ولدا ذكرا .

كان النشو يستخدم شرار الخلق ، وكانت له نساء عجائز يتجسسن فى البيوت الكبيرة ، وحدث ان احدى هؤلاء النسوة أبلغته عن أولاد ابن الجيعان ، وانه يسعى فى نظر الجيش ، والآخر يسعى ليتولى نظر الخاص ،

عندئذ طلب النشو كاتب الاصطبل منهم ، وطلب منه أن يكتب حساب الاصطبل ، فامتنع ، ورد عليه بكلام خشن عندئذ سعى النشو عليه عند السلطان حتى قال له السلطان :

« لم لا تعمل حساب الاصطبل ، وتعطيه الناظر ؟ ـ يقصد النشو .

فقال :

« ياخوند : بدل ان تطلب حساب الصبى والمقاود، اطلب حساب الذهب الذى يدخل الى خزائنك » .

واغلظ فى حق النشو ، وعندما قابله ، قال له :

« ونعمة مولانا السلطان اظهر فى جهتك مائتى ألف دينار » .

وهنا قامت قيامة النشو ، وانفض المجلس على ذلك ، فما زال النشو بأولاد ابن الجيعان حتى سلمهم الى لؤلؤ فعاقبهم حتى هلكوا ، وصودرت ثرواتهم ، ولم يكتف النشو بذلك ، بل قبض على أقاربهم ، وصادر أموال عدد من أصحابهم .

مملوك السلطان

فى هذه السنة ٧٣٥ هـ ، كثر شغف السلطان بمملوكه الطنبغا الماردينى شغفا زائدا ، الى درجة انه قرر ان ينشىء له مسجدا يحمل اسمه ، واختار موقعه خارج باب زويلة ، وكان لابد من ازالة عدد من البيوت بعد شرائها ، طلب السلطان النشو وكلفه بتحقيق ذلك ،

عندئذ استدعى النشو أصحاب البيوت ، وابتاعها منهم بنصف قيمتها ، وتم بناء المسجد والذى لا زال قائما حتى الآن .

وفى نفس هذه السنة جرت محاولة للتخلص من النشو عن طريق الوقيعة ، اذ كتبت رقعة الى السلطان تذكر ظلم النشو ، وتسلط أقاربه على الناس وكثرة أموالهم ، وعشق صهره لغلام تركى ، استدعى السلطان النشو ، وبعد أن قرئت عليه القصة قال : أنا أعرف من كتبها ، وحلف على براءة أقاربه من هذا الشاب ، وبكى ثم انصرف .

وحاول عدد من الامراء أن ينبهوا السلطان الى ثروة النشو الطائلة ، لكنه لم يستجب اليهم ، ولم يصدقهم ، كان النشو يحرص دائما على أن يبدو أمام السلطان فى مظهر الفقير المعدم حتى تزداد ثقة السلطان به ، ولكى يؤمن السلطان بفقره كان يقترض من كبار موظفى الدولة المتصلين بالسلطان ، مبالغ صغيرة من المال بين الحين والآخر ليوهمهم انه لا يملك شيئاً ، ارسل ذات يوم الى رئيس الاطباء يطلب منه مائة درهم بحجة أن ضيفا نزل عنده وليس لديه ما كرمه به ولكى تجوز حيلته على السلطان انتهز فرصة وجود كبير الأطباء عنده ذات يوم، وشكا فقره للسلطان ، وقد أمن رئيس الاطباء على هذه الدعوى بحكم ما وقع بينه وبين النشو من قبل وامعن النشو فى تصرفاته التى لحقت الخاصة والعامة على السواء ، فتدخل فى تجارة السلع الضرورية للحياة من لحم وفول واقمشة وكان يشترى منها باسم السلطان

كميات كبيرة بأسعار رخيصة ثم يبيعها للناس بأثمان عالية .

وهنا لندع المقريزى يحدثنا من خلال كتابه السلوك عن وقائع النشو .

رسالة تتضمن الوقيعة في النشو وأقاربه

فى يوم الاربعاء سابع عشر ربيع الاول ٧٣٦ هـ عزل الامير سيف الدين بغا عن الدوادارية ، واستقر عوضه سيف الدين ، كاجار المارديني ، ثم أخرج بغا على امرة عشر بصفد ، فى ليلة الجمعة سادس ربيع الاخر ، وسببه أن بعض تجار قيسارية جهاركس طرح عليه النشو ثيابا بضعفى قيمتها كما هى عادته ، فرفع قصته ، للسلطان على يد بغا ، وأحضر بغا بين يديه فشكا حاله ، فاستدعى السلطان النشو بحضور التاجر وقال له : كم تشكو الناس منك : اسمع ما يقول هذا عنك من طرح القماش عليه بأغلى الاثمان ، فقال « ياخوند : هذا ما يشتكى من أمر القماش لكنه عليه للسلطان مبلغ ثلاثين ألف دينار ، وقد هرب منى وانا اتطلبه ، وهذا المبلغ من ارث جارية تزوجها التاجر وهى من جوارى الشهيد الملك الاشرف خليل ، ماتت عنده وخلفت نحو مائة ألف دينار وما بين جواهر وغيرها ، فأخذ الجميع ولم يظهر على السلطان شيء » .

ثم التفت النشو الى التاجر وقال له :

« بحياة رأس السلطان : ما كنت متزوجا بفلانة ؟ » .
يعنى الجارية المذكورة ، فقال « نعم » فأمره السلطان ان يسلمه لابن صابر المقدم حتى يستخلص منه المال ، فأخذه ابن صابر وشهره بالقاهرة وعاقبه بالقيسارية مرارا حتى أخذ منه مبلغ خمسين الف درهم ، ثم تحول النشو على بفا ، وراح يقــول عنه انه مرتش ، وكان السلطان يكره الرشوة ، فأثر فيه كلام النشو ، فأخرجه ، وسعى النشو أيضا بطقتمر الخازن حتى غير السلطان عليه .

.. وفى ليلة الثلاثاء ثالث عشر رجب قبض على ابن هلال الدولة ، وعلى ناصر الدين محمد ابن المحسنى ، واخرجا الى الاسكندرية بسعاية النشو .

واشتدت وطأة النشو على الناس ، وابتكر مظلمة لم يسبق اليها وهى انه الزم أهل الصاغة ودار الضرب الا يبتاع منهم أحد ذهبا ، بل يحمل الذهب جميعه الى دار الضرب ، ليصك بصكة السلطان ، فجمع من ذلك مالا كثيرا للديوان ، ثم تتبع النشو الذهب المضروب فى دار الضرب ، فأخذ ما كان منه للتجار والعامة ، وعوضهم عنه بضائع ، وحمل ذلك كله للسلطان ، وانحصر ذهب مصر بأجمعه فى دار الضرب ، فلم يجسر أحد على بيع شيء منه فى الصاغة ولا فى غيرها ، ثم ان السلطان استدعى منه بعشرة آلاف دينار ، فاعتذر عنها فلم يقبل عذره ونهره فنزل النشو وألزم أمين الحكم بكتابة ما تحت يده من مال الأيتام ، وطلب منه عشرة آلاف دينار قرضا فى ذمته ، فدله على مبلغ أربعمائة ألف درهم

لأيتام الدواداري تحت ختم بهاء الدين شاهد الجمال ، فأخذها منه وعوضه عنها بضائع ، ثم بعث النشو الى قاضي القضاة تقي الدين محمد بن أبي بن عيسى الاخنائي المالكي في تمكينه من مال أولاد (الامير) أرغون النائب ، وهو ستة آلاف دينار ، وكانوا تحت حجرة فامتنع وقال « السلطان ما يحل له اخذ مال الايتام » . فرد عليه « السلطان انما يطلب المال الذى سرقه أخوك من خزانة الخاص حيث كان ناظرها ، فان الحساب يشهد عليه بما سرقه من الخزانة » . وقام في فورة الى السلطان ، وما زال به حتى بعث الى القاضي يلزمه بحمل المال الذى سرقه أخوه من الخزانة ، ويقول له « انت ايش كنت من مملوكي ؟ » فلم يجد قاضي القضاة بدا من تمكين النشو من أخذ المال .

.. في ذى القعدة من نفس السنة ، سقط طائر حمام بالميدان ، وعلى جناحه ورقة تضمنت الوقيعة في النشو وأقاربه ، والقدح في السلطان بأنه أخرب دولته ، فغضب السلطان من ذلك غضبا شديدا ، وطلب النشو وأوقفه على الورقة وتنمر عليه لكثرة ما يشكى منه ، فقال : « ياخوند : الناس معذورون : وحق راسك لقد جاءني خبر هذه الورقة ليلة كتبت . وهذه فعلة المعلم ابي شاكر بن سعيد الدولة ناظر البيوت ، كتبها في بيت الصفي كاتب الأمير قوصون ، وقد اجتمع هو وأقاربه » ، وأخذ النشو يعرف السلطان بما كان من أمر سعيد الدولة في أيام بيبرس الجاشنكير وأغراه به حتى طلبه ، وسلمه الى الوالي علاء الدين على بن حسن المرواني ، فعاقبه

عقوبة مؤلمة ، وطلب السلطان الامير قوصون وعنفه على فعل الصفى كاتبه ، فطلبه قوصون وهدده ، فحلف بكل يمين على براءته مما رمى به ، فتتبع النشو عدة من الكتاب وجماعة من الباعة ، وقبض عليهم بسبب ابن شاكر ، ونوع العـــذاب عليهم بيد الوالى ، وخرب دورهم بالمحراث ، وقبض النشو على الموفق هبة الله ابن سعيد الدولة ، ثم أفرج عنه بعناية الامير اقبغا عبد الواحد . وعذب ابن الازرق ناظر الجهات .

أرباب الدواليب
يتضررون من سطوة النشو

سنة سبع وثلاثين وسبعمائة .

.. وفيها أجدبت زراعة الفول ، فألزم النشو سماسرة الغلال الا يباع الفول الا للسلطان فقط ، فتضرر أرباب الدواليب (المقصود بالدواليب جميع الآلات المستخدمة فى الزراعة والصناعة ، وهذه الآلات كانت تدور بالابقار ، والابقار تعتمد على أكل الفول) .

وفيها صـــادر النشو جماعة من أرباب الدواليب بالوجه القبلى ، وأخذ من محتسب البهنسا وأخيه مائتى ألف درهم وألفى أردت غلة ، فرافع بن زعازع من أمراء الصعيد أولاد قمر الدولة عند النشو ، فاقتضى رأيه مصـادرة ابن زعازع لكثرة ماله ، وأوقع الحوطة على موجودة ، وكتب الى والى البهنسا ليعاقبه أشد العقوبة ، فلف والى البهنسا على أصـــابعه الخروق وغمسها فى

القطران وأشعل فيها النيران ، ثم عراه ولوحه على النار، حتى أخذ منه ما قيمته ألف ألف وخمسمائة الف درهم، ووجد له أربعمائة فرجية بفرو ، ومائة وعشرين جارية وستين عبدا ، ثم كتب عليه حجة بعد ذلك بمائة ألف درهم ، واحتج النشو بمصادرته بأنه وجد كنزا .

وفيها ارتفع سعر اللحم لقلة جلب الاغنام حتى بيع الرطل بدرهم وربع ، وسبب ذلك ان النشو كان يأخذ الغنم بنصف قيمتها ، فكتب الى نائب الشـــام ونائب حلب بجلب الاغنام ، ثم ان النشو استجد للسواقى التى بالقلعة أبقارا ، وأحضر أبقارها التى ضعفت وعجزت مع الابقار التى ضعفت بالدواليب ، وطرحها على التجـــار والباعة بقياسر القــاهرة ومصر وأسواقها حتى لم يبق صاحب حانوت الا وخصه منهـا شيء على قدر حاله : فبلغ كل رطل منها درهمين وثل[illegible] ، ورميت تلك الابقار على الطواحين والحمامات كل ر[illegible] بمائة درهم ولا تكاد تبلغ عشرين درهما فبلى الناس من ذلك بمشقة وخسارة كبيرة .

واتفق ان النشو اغرى الســـــلطان بموسى بن التاج اسحق حتى رسم بعقوبته الى أن يموت ، فضرب زيادة على مائتين وخمسين شيبا (الشيب سير السوط اى الكرباج) ، حتى سقط كالميت ، ثم ضرب من الغد أشد من ذلك ، وحمل على انه قد مات ، فسر النشو بذلك سرورا زائدا ، وذهب ليرى موسى وهو ميت فوجد به حركة ، وفى أثناء ذلك طلب السلطان الامير لؤلؤ فأخبره بأن موسى قد بدا يئن ، وبعد ساعة يموت ، فرسم الا يضرب بعد ذلك ، فشق هذا على النشو .

وفيها قل فرو السنجاب من الاسواق ، وذلك لقلة جلبه ، فأمر النشو بأخذ ما على التجار من الفرجيات ذات الفرو ، فهوجمت حوانيت التجار والبيوت حتى أخذ ما على الفرجيات من السنجاب ، فبلغ النشو دعاء التجار عليه فسعى عند السلطان عليهم ، ونسب اليهم أخذ الربا ، وقال ان عندهم كميات كبيرة من الاخشاب والحديد واستأذنه في بيعها عليهم ، فأذن له السلطان فنزل وطلب تجار القاهرة ومصر وكثيرا من أرباب الاموال ، ووزع عليهم من ألف دينار كل واحد الى ثلاثة آلاف دينار ليحضروا بها ويأخذوا عنها صنفا من الاصناف ، فبلغت الجملة خمسين ألف دينار ، وضرب من تخلف منهم بالمقارع ، ويبدو ان أحد هؤلاء التجار كان على معرفة بالست حدقة زوجة السلطان وأم ابنه أنوك ، فذهب اليها وشكا النشو ، وقال ان الخشب الذى فرضه عليه قيمته الحقيقية ألفا درهم ، وطلب منه النشو ألف دينار ثمنا له ، عندئذ تحدثت السيدة حدقة الى السلطان فى ظلم النشو للناس فطلب السلطان النشو ، وأنكر عليه ذلك ، وتجهم له ، فانصرف النشو وهو فى حالة شديدة من الغيظ ، وبدأ يدير انتقاما من ذلك التاجر ، استدعى رجلا واتفق معه على الانتقام من التاجر ، ذهب الرجل الى التاجر وسأله فى قرض مبلغ من المال ، فأخذ التاجر يشكو مما به من الزامه بألفي دينار عن ثمن خشب طرحه عليه النشو ، فقال له الرجل : « ارنى الخشب فانى محتاج اليه » ، فلما رآه أعجبه واشتراه منه بفائدة ألف درهم فى الشهر ،

امتلأ التاجر فرحا ، وأشهد عليه بذلك ، ومضى الرجل ليأتى بثمن الخشب ، عاد الى النشو وأخبره بما تم ودفع اليه بنسخة المبايعة ، فقام من فوره الى السلطان واعلمه انه نزل ليرفع الخشب من حاصل التاجر فوجده قد باعه بفائدة ألف درهم فطلب السلطان التاجر وسأله عما رماه عليه النشو ، فاغتر البائس وأخذ يقول « ظلمنى وأعطانى خشبا بألفى دينار يساوى ألف درهم ، فقال له السلطان « وأين الخشب » قال « بعته بالدين » ، فقال النشو « قل الصحيح فان هذه معاقدتك بيعه » ، فلم يجد بدا من الاعتراف ، فحنق عليه السلطان وقال « ويلك ، تقيم الغاثة » تستغيث « وأنت تبيع بضاعتى بفائدة ؟ » ثم أمر النشو بضربه وأخذ الالف دينار منه مع مثلها ، وعظم النشو عند السلطان ، ثم عبر السلطان الى نسائه وسبهن وعرفهن ما جرى ، وقال :

« مسكين النشو ما وجدت له أحدا يحبه كونه ينصحنى ويحصل مالى » .

وفى نفس السنة شكا المماليك من تاجر كسوتهم ، فطلب السلطان النشو وألزمه بحمل كسوتهم من الغد ، ومعها مبلغ عشرين دينار فنزل النشو وألزم الطيبى ناظر المواريث بتحصيل خمسة آلاف دينار ، وبعث المقدمين الى الاسواق ففتحوا حوانيت التجار وأخذوا كسوة المماليك وحوائجهم واخفافهم ونعالهم وغير ذلك ، وأخذوا مركبا فيه عدة بضائع طرحوها على الناس بثلاثة أمثال قيمتها ، وأحيط بتركة نجم الدين محمد

الاســــعودى ، وقد مات وترك زوجة وابنة وابن .. وأخذت كلها ، وأخذت وديعة من تركته لاولاده أيتام تحت حجره ، مبلغــا نحو خمسين ألف درهم ، وأنفقت فى يومها على المماليك والخدام ، وفتحت قيسارية جهاركس، وأخذ منها مقاطع الشرب « قماش رفيع من الكتان » برسم الكسوة ، فارتجت المدينة بأهلها ، وترك كثير من التجار حوانيتهم وغيبوا ، فصارت مفتحة ، والاعوان تنهب لانفسها ما أرادت ، فلم ير يومئذ بالقاهرة ومصر الا باك أو صائح أو نائح ، فكانا يومين شنيعين ، وعول ارباب الحوانيت على رفع ما فيها وخلوها ، فعرف النشو السـلطان ذلك فنودى « من أغلق حانوته أخـذ ماله وشنق » ففتحوها ..

نعم ..

لم يبق فى مصر الا باك أو صائح أو نائح .

هكذا فى بساطة وقوة يلخص المقريزى ما وصل اليه حال الناس تحت سطوة النشو ، وتمضى السنوات حافلة بظلمه ، يمضى النشو الى الأقاليم فيصادر الاموال ، واذا أفرج عن انسان يشق هذا عليه ، ولا يهدأ له باله حتى يعيده مرة أخرى الى السجن ، وفى هذا الخضم تجرى محاولة لاغتيال النشو ، اذ حدث فى يوم الاثنين ثانى عشر رمضان ان اعترضه فارس ، ضربه ، فأخطأ سيفه رأس النشو ، جرح كتفه فقط ، فغضب السلطان غضبا شديدا ، ولم يحضر السماط ، وأرسل الاطبــاء لمعالجة النشو ، وأغلظ على الامراء بالكلام ، وما زال يشتد ويحتد حتى عاد القصاد بسلامة النشو فسكن ما به .

وتجيء سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، ولا يكف النشو ، ولا يهدأ ، يسعى فى الناس بالشر ، ولا ينجو من أذاه أمير أو طحان ، وعندما يبلغه أن الوعاظ يدعون عليه من فوق منابر الجوامع ، يسعى السلطان حتى يمنع الوعاظ بأجمعهم من الوعظ ، وتستمر الاحوال على ما هى عليه فى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ، يأخذ النشو مال الاقباط مع انه كان فى الاصل قبطيا ثم أسلم ، ويستولى على حلى النساء ، يقول المقريزى :

« وفيها كثرت مصادرة النشو للناس من أهل مصر والقاهرة والوجه البحرى والقبلى ، حتى خرج فى ذلك الحد » .

ولكن لكل أول آخر ، ولكل بداية نهاية ..

النهـــاية

سنة أربعين وسبعمائة .

فى يوم الاثنين ثانى صفر قبض على النشو ، وعلى أخيه شرف الدين رزق الله ، وعلى أخيـه المخلص ، ورفيقه مجد الدين ، وعلى صهره ولى الدولة .

كيف ؟

لنصغ الى المقريزى محدثنا عن هذا الزمن البعيد ..

« .. وسبب ذلك انه لما أسرف النشو فى الظلم بحيث قل الجالب للبضائع وذهب أكثر أموال التجـار لطرح الاصناف عليهم بأغلى الاثمان ، وطلب السلطان منه يتزايد ، خاف النشو العجز فرجع عن ظلم العامة ، الى التعرض الى الخاصة ورتب مع أصحابه ذلك .

وكانت عادته فى كل ليلة ان يجمع اخوته وصهره ومن يثق فيه للنظر فيما يحدثه من مظالم فيدله كل منهم على داهية ، ثم يفترقون وقد أبرم للناس بلاء يعذبهم الله به من الغد على يده ، فكان مما اقترحه أن رتب أوراقا تشتمل على فصول يتحصل فيها الف الف دينار عينا ، وقرأها على السلطان ، ومنها التقاوى السلطانية المخلدة بالنواحي من الدولة الظاهرية بيبرس والمنصورية قلاوون فى اقطاعات الامراء والاجناد وجملتها مائة ألف اردب ، سوى ما فى بلاد السلطان من التقـاوى ومنهـا الرزق الاحباسية على الجوامع والمساجد والزوايا وغير ذلك وهى مائة ألف فدان (وثلاثون ألف فدان) .

ويمضى المقريزى فى سرد تفاصيل ما خططه النشو مع أقاربه للاضرار بكبار الامراء وكان ما تفتق عنه ذهنه، هو الزام متولى كل اقليم باستخراج التقاوى من أرضه وحملها الى خزائن السلطان ، ثم تباع من جديد الى الناس بمعرفة الخاصة السلطانية ، انزعج الامراء من هذا القرار ، وقال أحدهم للسلطان : « يا خوند والله ان النشو لضرك أكثر مما ينفعك » .

ويبدو ان السلطان أمعن الفكر ، وأحس ان النشو مكروه لدى الجميع ، ولم يكن اتخاذه القرار سهلا ، فكتب الى الامير تنكز نائب الشام يستشيره فى الامر ، ويخبره أن النشو أصبح مكروها من الجميع ، ولـكنه يخدم السلطان وينفعه ، وأجاب الامير تنكز مؤيدا سـوء سيرة النشو ، وختم خطابه قائلا : « ورأى السلطان فيه أعلى » .

وكثرت الاوراق التى كانت تلقى الى السلطان وتحوى ذما للنشو ، ومما قيل فى بعضها :

أيا ملـــكا أصبح فى نشـــوة
من نشـــوة الظـالم فى نشيه
أنشيته فلتنشئن ضغائنـــــا
سترى غباوتها بصحبة غيـــه
حكمته فحكمت أمرا فاســـدا
وتوحشت كل القـلوب لفحشه
سترى بوارقهـــا اذا ما أظلمت
وتحكمت أيدى الزمان ببطشـــه
ولتندمن ندامة كســــعيه
يوما اذا ذبح الخـروف بكبشه

وقرأ السلطان فى ورقة أخرى :

امعنت فى الظـــــلم واكثرته
وزدت يا نشـــو على العـــالم
ترى من الظـــالم فيكم لنـــا
فلعنــة الله على الظـــــالم

وحدث ان مرض الامير يلبغا ، وكان السلطان يثق فيه ، فأقام عنده حتى يطمئن عليه ، وخلال حديثهمـا قال يلبغا : « ياخوند : قد عظم احسانك لى ووجب على نصحك ، والمصلحة تقضى بالقبض على النشـــو ، فالامراء جميعا يكرهونه ، ويكرهونك لحبك اياه ، وما من مملوك من مماليك الا يترقب غفلة منك ليقضى عليك انتقاما منك لانك تركت هذا الشخص يعبث بمصالح الناس » .

وبكى يلبغا ، وبكى النـــاصر ، وقام من عنده مبلبل الخاطر ، ليصدر أمرا بالقبض على النشو .

يقول المقريزى :

« وطلب السلطان المقدم ابن صابر ، وأسر اليه أن يقف بجماعته على باب القلعة وباب القرافة ، ولا يدعو واحدا من حواشى النشـــو وأقاربه واخوته أن ينزلوا ، وأن يقبضوا عليهم كلهم ، وأمر السلطان الامير بشتاك والامير برسبغا الحاجب أن يمضيا الى النشو ، ويقبضا عليه وعلى أقاربه فخرج بشتاك وجلس على باب الخزانة وطلب النشو من داخلها ، فظن النشو انه جاء لميعاده مع السلطان حتى يحتاطا على موجود أقبغا عبد الواحد، فساعة ما وقع بصره عليه أمر مماليكه بأخذه الى بيته من القلعة ، وبعث الى الامير ملكتمر الحجازى فأخذ أخاه رزق الله وأخذ أخاه المخلص وسائر أقاربه ، فطار الخبر الى القاهرة ومصر ، فخرج الناس كأنهم جراد منتشر » .

خرج الناس كالجراد المنتشر !!

لحظة مدببة فى مسار الزمن ، عندما ينتهى الكابوس العام ، فيسرى الاثر الى كل انسان ، البعيد ، الدانى ، الكبير ، الصغير ، لحظة الخلاص ، عندما يندفع الانسان الى خارج بيته ، يظن انه بمفرده ، واذا بالجميع فى الشارع ، هكذا خرج النـاس كالجراد المنتشر عنـدما سمعوا بخبر القبض على النشو وزمرته ، وفى القلعة جلس الســلطان ولا زال فى نفسه شك ، انه يقـول للأمراء :

« وكم تقولون النشو نهب أموال الناس ! الساعة ننظر المال الذى عنده » .

فى القاهرة يعم الفرح ، اغلقت الاسواق ، واتجه الجميع الى ميدان الرميلة تحت القلعة ، كما يتجهون الى ميدان التحرير فى العصر الحديث ، أو ميدان العتبة ، أو الى منشية البكرى (ليلة التاسع من يونيو ١٩٦٧ ، وليلة وفاة عبد الناصر) ، جاء الليل والناس لم تنصرف بل أوقدوا الشموع ، يرفعون على رءوسهم المصاحف ، وينشرون الاعلام ، وهم يضجون ويصيحون استبشارا وفرحا بقبض النشو ، والامراء يشيرون اليهم أن يكثروا مما هم فيه ، وقضوا الليل كله على ذلك ، وفيه زاد النيل بعد توقفه ، فقال علاء الدين الشاعر :

فى يوم الاثنين ثانى الشهر من صفر
نادى البشير الى أن اسمع الفلكا
يا أهل مصر نجا موسى ونيلكم
طغا وفرعون وهو النشو قد هلكا

صباح الثلاثاء ، نودى فى القاهرة :

« بيعوا واشتروا واحمدوا الله على خلاصكم من النشو » .

صباح الثلاثاء أيضا انتحر شقيق النشو ، وأخرجوه فى تابوت امرأة حتى دفن فى مقابر الاقباط خوفا عليه من العامة ، وتمت الحوطة على أموال النشو ، النشو الذى كان يتظاهر بالفقر والحاجة ، والذى كان السلطان يظن حتى آخر لحظة انه لا يمتلك شيئا ، فماذا وجدوا عند النشو ؟ ، فى بستان بجزيرة الفيل وجدوا أمه وامرأته وأخته وولديه ، ومعهم ستون جارية ، ومائتا جنيه

(كيس من جلد البعير) وعصير عنب ثم حمل الامراء ثروة النشو الى السلطان ووضعوها بين يديه ؛ وضعوا خمسة عشر ألف دينار ذهب ، وألفين وخمسمائة حبة لؤلؤ قيمة كل حبة ما بين ألفي درهم الى ألف درهم ؛ وسبعين فصا بلخش قيمة كل فص ما بين خمسة آلاف درهم الى ألفين ، وقطعتين زمرد فاخر رطل ونيف وستين حبلا من لؤلؤ كبار زنة ذلك أربعمائة مثقال ، ومائة وسبعين خاتم ذهب وفضة بفصوص مثمنة ، وكف مريم مرصع بجوهر ، وصليب ذهب مرصع ، وعدة قطع زركش سوى حواصل لم تفتح ، فخجل السلطان لما رأى ذلك ، واستمر الامراء ينزلون كل يوم لاخراج حواصل النشو ، فوجد له من الاواني الصيني والبلور والتحف السنية الشيء الكثير ، ثم وجدت عنده مائتي برميل مملوئين بالملوحة « سمك مملح » وثمانين بالجبن ، وأحمالا كثيرة من بضائع الشام ولحما كثيرا من لحم الخنزير ؛ وأربعة آلاف جرة خمر ، سوى ما نهب ، ووجد له أربعمائة بدلة قماش جدد ، وثمانون بدلة مستعملة ، وزراكش ومفرجات (عباءات) ، وستون قفطانا نسائيا ؛ ومناديل زركش عدة كثيرة ، ووجد له عدة صناديق بها قماش سكندري كان قد صنع لحساب ملكة المغرب ولكنه اختلسه وكثير من قماش الامراء الذين ماتوا أو قبض عليهم ، ووجد له مملوك تركي كان النشو قد خصاه هو واثنين معه ماتا ، ثم وجدوا لاخوة النشو ذخائر نفيسة، منها لصهره ولي الدولة صندوق فيه مائة وسبعون فص بلخش ، وستة وثلاثون مرملة (ظرف كان يوضع فيه

الرمل الذى يستخدمه الكتاب لتجفيف الكتابة) مكللة بالجواهر الرائعة واحدى عشر عنبرية مكللة باللؤلؤ كبار، وعشرون طراز زركش ، وغير ذلك ما بين لؤلؤ منظوم وزمرد ، وكوافى زركش ، وقدر الجميع بأربعة وعشرون الف دينار .

وفى نهاية هذه السنة ٧٤٠ هجرية ، مات النشو ، واندثر أمره مات النشو عام ٧٤٠ هجرية بالتحديد يوم الاربعاء ثانى ربيع الآخر .

لكن بعد انقضاء سبعة قرون على اختفائه ، هل يمكن القول انه اختفى من حياتنا ؟ ..

السلطان الطفل

« .. فلما كان يوم الاحد سابع وعشرين ذى القعدة من سنة احدى وتسعمائة ، توفى الملك الاشرف أبو النصر قايتباى المحمودى الظاهرى ، دفن فى اليوم التالى ، رحل بعد أن حكم مصر والديار الشامية تسع وعشرين سنة وأربعة اشهر وواحد وعشرين يوما ، كان سلطانا عظيما ، شهما ، وقورا ، وافر العقل ، سديد الرأى ، يتروى فى الامور قبل وقوعها ، شجاعا ، فارسا قديرا ، وكان عصره من العصور الزاهية .

بعد وفاته صار السؤال المطروح من بعده يلى الحكم ؟ كان هناك عدد من المماليك يتربص بكرسى السلطنة ، مثل الامير قنصوه خمسمائة ، وكرتباى الاحمر ، ولما كان انقضاض أحدهم على السـلطة سيفجر الصراعات والحروب ، فقد جرت العادة فى مثل هذه الاحوال على تولية أحد أبناء السلطان حتى لو كان طفـلا رضيعا . وبمضى الايام تتم الغلبة لمن هو أقوى . هكذا وقع الاتفاق على سلطنة ابن السلطان . بايعه الامراء من غير موافقة والده الذى كان يلفظ انفاسه الاخيرة ، وتلقب بالناصر ،

كان عمره أربعة عشر عاما وأشهر ، يقول ابن اياس : « ولو كان قايتباى واعيا لما مكن الامراء بأن يسلطنوا ولده ، ولا كان ذلك قصده » . ويبدو أن الاب كان يعرف ابنه جيدا ، المهم أحضرت شعائر الملك ، وهى الجبة السوداء ، وقد فصلت على قده ، ولفت له عمامة لطيفة مناسبة له ، وقدمت اليه فرس النوبة بالسرج المذهب والكنبوش ، وتقدم الامير قنصوه ، وحمل القبة والطير على رأسه ، ومشى السلطان حتى جلس على سرير الملك، وهكذا تولى أمر مصر والديار الشامية ، حدث عمره أربعة عشر عاما ، دون البلوغ ..

***

.. تأسف الناس على موت قايتباى ، وخرجوا الى جنازته ، حتى ان ابن اياس يقول « وكانت جنازته مشهودة بخلاف من يموت من الملوك » ، ولم يستبشر الناس خيرا بالسلطان الجديد ، ويبدو ان ظاهرة الحاكم القوى الذى يعقبه سلسلة من الحكام الضعاف تتكرر فى التاريخ المصرى ، نجدها فى العصر الفرعونى ، رمسيس الثانى مثلا يموت ، ويخلفه اثنى عشرة من الرعامسة ، لا يتوقف عندهم أحد ، خوفو الذى شيد الهرم الاكبر ، ثم خفرع الاقل حجما حتى فى هرمه ، ثم منقرع ، ثم ملوك آخرين غير معروفين ، وفى تاريخنا الحديث بدأت الاسرة العلوية بمحمد على باشا الكبير ، وانتهت فى القرن التاسع عشر بالخديوى توفيق الخائن ، والجبان ، الذى نكب مصر بالاحتلال الانجليزى .

هكذا جاء الناصر ابن الرابعة عشر مخلفا لابيه قايتباى

العظيم ، كان جميل الهيئة ، مليح الشكل ، ولكنه هذا النوع من الجمال الذى يخفى فى طياته القبح الداخلى. الشر ، والقسوة الزائدة ، لم يشعر بحـزن كبير على والده ، انما راح يمعن النظر فرحا فى السـلطة التى أصبحت فجأة بين يديه ، الامراء الكبار يقبلون له الارض بين يديه ، الخليفة يمشى منكس الرأس ، الكل يسعى اليه ويطلب وده ، لا شىء يحول دون تحقيق رغباته ، فى نفس الوقت عظم أمر الاتابكى قنصوه خمسمائة الى الغاية ، حتى انه لم يصل مع السلطان صلاة عيد النحر ، ولا صلاة الجمعة ، وفى بداية عام اثنتين وتسعمائة شعر السلطان ان الكل يتربص به ، فأحضر المصحف العثمانى ، وحلف عليه سائر الامراء والعساكر ، ولم يطلع قنصوه خمسمائة ولم يحلف فى بداية الامر على الولاء للسلطان ، ولكنه طلع بعد أيام وحلف ايمانا غير صادقة ، ويبدو ان السلطان الغلام شعر ببعض الاطمئنان بعد القسم ، لم يكن شىء يحول دون تحقيق شـهواته ، بدأ طيشانه يظهر ، فى أحد الايام قبض على امرأة ، وضربها بين يديه بالمقارع ، وأمر باشهارها على حمار وفى عنقها زنجير حديد ، وهذا شىء لم يحدث قط من قبل ، أن تضرب امرأة بين يدى سلطان ، بل انه ضربها بنفسه ، وبدا متلذذا بالضرب ، مستمتعا به ، ثم بدأ فى النزول من القلعة ومصـاحبة الاوباش ، واللعب معهم ، وتدخين الحشيش ، واتيان الرذائل ، واضطر الامراء الى احاطته بأربعة من الحاشية لمنعه من النزول واللعب مع أولاد العوام ، وصار الامير تانى بك الجمالى يبات عنده كل

ليلة فى القلعة ليمنعه من ذلك ، ولكن رغبات السلطان كانت أقوى ، وشهواته أعنف ، وطيشه أعظم ، ولم يكن يهتم بمظاهر السلطنة ، فى ربيع الاول (٩٠٢ هـ) أقام السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وكان أول احتفال عام يقيمه ، ويحضره ، جلس بين الامراء ، وفجأة اعتراه النعاس ، واضطر الامراء الى رش الماء على وجهه حتى يفيق ، فى هذه الفترة بدأت الاطمـــاع تتحرك ، فى جمادى الاول تزايدت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة ، وفى مثل هذه الحال تغلق الاسواق ، تقفر الطرقات ، ويقبع الناس خلف جدران بيوتهم ينتظرون نتيجة الصراع ، وللمرة الثانية يحضر السلطان المصحف العثمانى ويحلف الامراء والجند عليه ، ولم تمض عدة أيام حتى تحرك الامير قنصوه ، ركب بعساكره ، وملك باب السلسلة ، ثم جلس وأرسل يستدعى أمير المؤمنين الخليفة المتوكل ، والقضاة الاربعة ، وسائر الجند ، فلما تكامل المجلس تشاوروا فى خلع السلطان الناصر وسلطنة قنصوه ، وبالفعل ، قرروا خلع السلطان ، تشاوروا فى ذلك ، وكتبوا محضرا ، وشهد فيه الكثيرون ، وبويع الامير قنصوه بالسلطنة ، وتلقب بالاشرف أبى النصر ، وقبل له الامراء الارض والعسكر قاطبة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الاصوات بالدعاء ، ولم يتبق له الا أن يركب فرس النوبة ، ويلبس الجبة السوداء ، والعمامة السلطانية ، وتحمل على رأسه القبة والطير ، والاهم من ذلك كله صعوده الى قلعة الجبل ، وجلوسه على سرير الملك ، والاستيلاء على القلعة فى العصر

المملوكى كان هو الفيصل فى الصراع ، كان سقوطها يعنى استلام السلطة بشـــكل كامل ، ويعكس ذلك مركزية السلطة الشـــــديدة فى مصر ، ولكن وقعت عجائب ، وغرائب ، كما يقال :

ستقضى لنا الايام غير التى غدت
ويحدث من بعـــد الامور أمور

***

كل الامور مهيأة .

ارسل السلطان الجديد بعض الامراء الى القلعة للقبض على الملك الناصر ، ولكن جماعة من مماليك أبيه تعصبوا له ، وتصدوا للأمراء ، وكان على رأسهم خال السلطان الناصر ، ودار القتال فى القلعة ، واستمر حتى يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة ، فى هذا اليوم أصاب قنصوه سهم سقط مغشيا عليه ، فحمله الغـلمان على أكتافهم ، وبقى لباسه بدكته ظاهرا للناس ، ورأسه مكشوفة ، وهكذا فقد السلطان الجديد هيبته ،واختفى فى القاهرة ، فلما انكسر نزل مماليك السلطان الغلام ، ونهبوا الامراء والخليفـــة ، وخطفوا عمائم القضـــاة ونوابهم وفى اليوم التالى طلع الخليفة والقضـــــاة الى القلعة ، لتهنئة السلطان الغلام بانتصاره ، وبايع الخليفة السلطان الغلام مرة ثانية بعد أن كان قد خلع منهـا ، أنعم السلطان على خاله الذى صار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار السعى لأرباب الوظائف من بابه، وبعد عدة أيام ظهر الامير قنصوه مرة أخرى ، ولكن لم يتحمس الجند للوقوف معه ، فاضطر للهرب مرة أخرى،

خارج القاهرة ، ولم يمض وقت طويل حتى قتل ، غير ان تمرد قنصوه جعل السلطان الغلام مهددا باستمرار ، حتى ان بعض المماليك اقترحوا تغيير لقب السلطان ، ولقبـــوه بالملك الأشرف على لقب أبيه ، واحتج بعض الامراء ، كيف يكون ذلك وقد خرجت المناشير الى كل البلاد باللقب الاول ، ولكن المماليك صمموا ، وعند ذلك نودى فى القاهرة ان الســـلطان تغير لقبه ، الى الملك الاشرف ، فتعجب الناس من ذلك ، وصار الخطبـــاء فريقين بعضهم يخطب باسم الملك الناصر ، ومنهم من يخطب باسم الملك الاشرف ، وقع الاضطراب فى كل شىء ، وهجم المنسر على سوق باب اللوق وسوق تحت الربع ، وقطع العربان الطرق فى الريف ، وبرغم اضطراب الاحوال ، فان السلطان الغلام لم يتعظ ولم يثب الى رشده ، بعد انتهاء الفتنة اندفع فى سلوكياته أكثر قوة ، واشد .

***

اختار السلطان الغلام عددا من اللصوص ، والاوباش ، فصاحبهم ، ولازمهم وصنعوا له مركبا صغيرة ، جعــل فيها حلوى وفاكهة وجبن مقلى ، وكان ينزل بنفسه فى المركب ، ويبيع كما يبيع البـــاعة فى بركة الرطلى زمن فيضـــان النيل ، وكان يقلد أصــوات البــاعة ، ويبدو مسرورا بتمثيله دور البائع ، ثم يظهر لمن يلعب معهم فجأة القسوة ، يذكرهم بأنه السلطان ، واذ يرى رعبهم منه يضحك ، يضحك مسرورا ، وفجأة أمر بالقبض على سبعة من أهل الفساد الذين كانوا يلعبون معه ، أدخلهم

الى الحوش فى وسط القلعة ، أمر بقيدهم ، ثم استدعى المشاعلى (المكلف باعدام الناس) ، وطلب منه أن يعلمه كيف يوسطهم ، فراح المشاعلى يعلمه ذلك أمام رفاقه فى اللعب ، وهو يختلس النظر بين الحين والحين الى وجوههم مستمتعا برعبهم ، ثم تقـــدم منهم ، أمسك بالسيف ، وبدأ بأن قطع أيديهم ، ثم قطع آذانهم ، ثم قطع ألسنتهم بيده ، وكلما علت صرخاتهم ، كلما ازداد قسوة ، وازداد متعة ، وبعد أن وسطهم جميعا ، دخل الى قاعة الملك ليدير أمور الدولة ، لقــــد رأى الذعر الانسانى ، وأشبع عينيه فرأى الدماء ، انه يريد ان يرى ذعر الحيوانات ، أمر باحضار عدد منها وقطعها بيده ، ثم أمر باحضار عـــدد من الحيـــات الســـامة ، فقطعت بحضوره ، وبعد انتهاء تقطيعها أهدى من قاموا بهذه العملية الخلع والهدايا .

العيـــــد

الامور تضطرب ، يجىء الصيف ويشتد الحر ، يعز وجود السقايين ، يتكالب الناس على الجمال التى تنقل المياه من النيل حتى انهم تخانقوا بالعصى ، يتزايد أذى المماليك ، ينزلون الى الاســـــواق ويعترضون المارة ، يخطفون العمائم ، وخطف العمائم من الامور الشائعة ، فى هذا الزمان لأن الناس اعتادوا وضع نقودهم فى لفات القماش التى تحيط بالعمـــامة ، الا من مفتقر تماما ، والسلطان كلما تقدم به السن لا يعقل ولا تدركه حكمة ،

فى يوم التاسع والعشرين من شهر رمضان عام ٩٠٢ هـ، يأمر السلطان بأن تدق الكوسات فى القلعة ، يقول لمن حوله « أنا أعمل العيد فى الغد من هذا الشهر ان رأوا الهلال أو لم يروا » ، فلما أشيع ذلك بين الناس ركب قاضي القضاة الشافعى زين الدين زكريا وطلع الى القلعة ، فاجتمع بالسلطان وراح يشرح له ان العيد لا يكون شرعا الا اذا رؤى الهلال ، وشق الامرعلىالسلطان، غضب ، كيف لا ينفذ ما ارتآه ، كيف لا تتحقق رغباته حتى وان بدت مخالفة للشرع ، للدين ، أليست خيوط السلطة كلها فى يده ، هم بعزل القاضى فى ذلك اليوم ، فى اليوم التالى كان الخميس ولم يظهر الهلال ، فجاء العيد يوم الجمعة ، وكان السلطان يخشى فى أعماقه مجيء العيد يوم الجمعة ، بسبب اعتقاد ساد فى مصر خلال العصور الوسطى ، وحتى الآن بين الطبقات الشعبية ، وهو انه اذا جاء العيد يوم الجمعة ، وأقيمت الصلاة فيه مرتين كان ذلك ايذانا بزوال الحاكم عن قريب ، جاء العيد يوم جمعة ، ولم يخرج السلطان الى الصلاة ، ولم يطلع الاتابكى تمراز الى القلعة ، ولا بقية الامراء المقدمين ، ولم يكن السلطان فى موقعه ، انما كان فى قاعة البحرة يقضى العيد مع الاوباش واللصوص .

يقول ابن اياس :

« وكان الناصر فى تلك الايام فى غاية الطيشان .. »

وينتهى عام ٩٠٢ هـ ، ويعلق ابن اياس :

« وقد خرجت هذه السنة على ما شرح فيها من الفتن والافكار ، والفساد ، وخراب البلاد ، ووقع فيها

الفلاء وتشحطت الغلال ، وقتل فيها من الامراء نحو من خمسين أميرا ، ما بين مقـــدمين ألوف وطبلخانات وعشرات ، وقد تقدم ذكر ذلك عند وقوع كل حادثة ، من أوائل هذه السنة الى أواخرها ، حسبما اوردناه من الوقائع ، وقتل من الجند والعرب نحو من ألف انسان فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .. » .

ســلطان فى الرابعة عشر ، مراهق ، شاذ ، ما من شيء يحول دون رغباته الحسية ، ينزل بين الحين والحين الى تربة أبيه مع أصحابه اللصوص ، وفى الليل يأتى بما لم يسمع بمثله ، يقول ابن اياس :

« وفيه نزل السلطان وبات فى تربة أبيه ، وحصل منه تلك الليلة عدة مساوىء لا ينبغى شرحها » .

وفى هذه الايام يجيء الطاعون ، ومات من الاطفـال والمماليك والعبيد والجوارى عدد كبير ، واستمر المماليك فى أذاهم للســلطان استخفوا به ، وجاروا على الناس بخطف القماش من الدكاكين والبضائع من الاسواق ، وصاروا يستخفون بالسلطان والامراء ، حتى قيل ان بعض المماليك كان راكبا على فرس حرون ، فصــادف جنازة فى وجهه ، فجفل منها فرس ذلك المملوك ، فسقط الى الارض ، فخــرج خلفه وهاش على الحمالين الذين يحملون الميت ، فهربوا بعد أن ألقوا الميت على الارض ، فلما هربوا راح يضرب الميت حتى شفى غليله !

كل تفاصيل الحياة تصبح قبيحة ، اذا كان الحاكم قبيحا ، عرفنا ذلك جيدا فى مصر ، طوال تاريخهــا البعيد ، والقريب ، أما السلطان الغلام فلاه ، لا يعبأ ، غارق فى طيشه ، ينزل الى بولاق فى مولد ســيدى

اسماعيل الامبابى ، رحمة الله عليه ، يعبر النيل فى قارب ، ومعـــه بعض أولاد عمـــه ، أوقد حراقة نفط هائلة « صواريخ » وبات هذه الليلة فى المركب ، ثم تكرر منه ذلك فى عدة ليالى أخرى ، ثم صار يركب بنفسه فى كل ليلة بعد العشاء وأمامه فانوسين وأربعة مشاعل ، وعدد من العبيد السود ، واذ يرى أى انسان فى الطريق يناديه ، ثم يسأله بصوت هادئ ، ويتحاور معه ، وفجأة يأمر بامساكه ، ثم ينزل من فـوق جواده ويقطع أذنيه وأنفه بيده ، أو يقتله ، وهكذا قتل من النـاس عـــدد لا يحصى فى مدة بسيطة ، وكان اذا مر بدكان ولم ير عليه قنديلا يسمر الدكان ، وهو واقف بنفسه عليها حتى تسـمر ، كان السلطان أثناء مشيه فى الاسواق ينظر الى البيوت ، فاذا لمح امرأة جميلة هجـــم عليـــه اقتحمه واغتصب المرأة أمام زوجها،وأخيها ، فى احدى الليالى دخل حارة الروم ، هجم على دار ابراهيم مســــتوفى ديوان الخواص ليلا وقبض على ولده أبى البقا واراد قتله ، فالقى والده نفسه عليه وافتداه بألف دينار ، كان السلطان الطفل ــ الذى أصبح مراهقا بشعا ــ قد بلغه ان زوجة ابى البقا جميلة ، فهجم عليه بسببها ، فأخفوها منه ، فجرى منه ذلك ، مرة أخرى سمع عن امرأة جميلة ، فاقتحم طاقة بيتها ، واغتصبها ، وضرب زوجهـــا بالمقارع وسط بيته ، وقطع دائرة فرجها بيده ، ونظمه فى خيط أعده لنظم فروج النساء ، فى يوم آخر أمسك بجارية جميلة ، اغلق عليها الباب ، ربطها ، وفى قسوة بشعة راح يسلخ جلدها ، راحت امه تتشفع لها ، ولكنه

لم يستجب لطرقاتها فوق الباب ، واستمر حتى سلخ الجارية تماما ، وحشا جلدها ثيابا ، وخرج يظهــــر لمن بالباب قدرته على السلخ ، راح يصيح :

« ان الجلادين لا يستطيعون ان يفعلوا مثلما فعلت » .
ونتوقف عن سرد فظاعاته مع النساء .

ويمضى عام آخر من سنوات العذاب التى عرفتها مصر ، ولندع شيخنا ابن اياس يعلق :

« وقد خرجت هذه السنة على النــاس وهم فى أمر مريب ، وقد وقع بها الغلاء والفناء ، والمصادرات للناس ، وجور السلطان فى حق الناس ، كما تقدم ، وأذى المماليك فى حق الرعية ، وقد صارت الناس فى غاية الاضطراب وما كفى هذا كله ، حتى فشى فى الناس داء يقال له الحب الفرنجى (الزهرى) أعاذنا الله منه ، وقد أعيى الاطباء أمره ولم يظهر هذا بمصر قط سوى فى أوائل هذا القرن ، ومات به من الناس ما لا يحصى ، انتهى ذلك .

ولكن أيام السلطان المجنون لم تنته بعد ...

فى غمار الاستمتاع بالسلطة وسكرتها ، تبدو الاوضاع مستقرة هادئة ، ويخيل للحاكم انه سيقضى بقية عمره يحكم ويفسق ، ولن يردعه رادع ، وفى مصر كانت تمر فترات يبدو فيها الواقع آسنا ، كريها ، وما من حركة ايجابية تواجه البغى ، وفجأة يتفجر الواقع عن مفاجأة لا تخطر على بال ، ربما يتحرك شخص واحد ، يفتدى أمته بنفسه ، فيجهز على الطاغية ، وهكذا يتبدل الواقع الى الافضل ، وقــد يهب الشعب كله الذى ظن القريب والبعيد انه مات ، وانه لن يتحرك .

جاءت سنة ٩٠٤ هـ ، والاحوال سيئة للغاية ، والمماليك طالبين الشر مع السلطان ، فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الاول ، نزل السلطان من القلعة وتوجه الى بر الجيزة ، لم يصحبه أحد من الامراء ، حتى ولا خاله ، نصب هناك خيمة وارسل احضر أبو الخير لاعب خيال الظل المشهور ، وجوق مغانى ، وأقام ثلاثة أيام وهو فى أرغد عيش ، وأثناء عودته مر على الطالبية، وكان الامير طومان باى الدوادار هناك ، خرج الامير وعزم عليه فلم ينزل عنده ، فخرج اليه بجفنة فيها لبن فاخر ، فوقف السلطان وهو راكب على فرسه ، فقدموا له الجفنة اللبن والمعلقة فمد يده الى الجفنة وأكل من اللبن ،فبينما هو يأكل والامير طومان باى ماسك لجام فرسه ، فلم يشعر الا وقد خرج عليه كمين من الخيام التى هناك نحو من خمسين مملوكا ، وهم لابسون آلة السلاح ، فاحتاطوا به ، وعاجلوه بالحسام قبل الكلام .

وقتل أشر قتلة ، مثلوا به كما مثل بالمئات .

وهنا لنصغى الى شيخنا ابن اياس :

« .. وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية نحوا من سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوما ، وكانت أيامه كلها فتن وشرور ، وحروب قائمة ، وما كان الاشرف قايتباى قصده ان يتسلطن ولده خوفا عليه من ذلك » .

ويسدل الستار على فترة حالكة من تاريخ مصر الطويل .

خاير بك

« .. فى ذلك اليوم البعيد المتوارى الآن فى أعماق التاريخ ، شرع السلطان الغورى يصيح محاولا لم شمل عساكره بعد أن دارت الدوائر وصارت الكفة راجحة الى جانب السلطان سليم العثمانى ، « يا أغوات ، هذا وقت الشدة ، هذا وقت المروة ، قاتلوا وعلى رضاكم » .

ولكن لم يسمع له أحد قولا ، وصاروا ينسحبون من حوله شيئا بعد شىء ، وفوق الغبار الذى غطى سهل « مرج دابق » خيم شبح الخيانة الكئيب المقزز ، لقد عرف على الفور ان بعض أمراء المماليك كانوا على صلة بالسلطان سليم ، ومنهم خاير بك نائب حلب الذى كان يقود الميسرة لقد كان موالسا على السلطان الغورى فى الباطن ، وهو مع ابن عثمان على السلطان ، وظهرت خيانته مبكرة ، كان أول من هرب من القادة ، والحقيقة ان خيانته بدأت قبل موقعة مرج دابق بكثير ، كان على صلة بالعثمانيين ، يراسلهم بأحوال مصر ، ويكشف أسرارها ، ولا يحدد لنا ابن اياس التاريخ الذى بدأ فيه تجنيده للعمل الى جانب العثمانيين وهذا طبيعى فتاريخ الجواسيس والخونة يلفه الغموض دائما ، ولكن

يبدو ان « تجنيد » خاير بك للعمل الى جانب العثمانيين قد تم عندما تولى نيابة حلب ، وتلك منطقة تقع عند حدود السلطنة المملوكية وتحاذى السلطنة العثمانية ، ويبدو ان خاير بك لم يمر بمرحلة معاناة طويلة فى رحلة خيانته ، اذ اننا نلاحظ ما يمكن أن نسميه الشعور باللاانتماء الى الوطن عند كثير من المماليك الذين انتزعوا من أوطان بعيدة وجيء بهم الى مصر ، ويبدو هذا اللاانتماء واضحا فى سلوك السلطان الغورى عند نزوله من القلعة وخروجه على رأس الجيش المصرى لصد العثمانيين اذ اخذ كل ما يملكه من أموال وتحف وجواهر وسلاح نادر فوق عشرات البغال ، كان المال هو الوطن الحقيقى ، لا ننكر ان العديد من أمراء المماليك ارتبطوا بمصر ، واعتبروها وطنهم ، وبعضهم استشهد من أجلها ، وفيما بعد كان العثمانيون يطلقون عليهم « الامراء المصرية » ، لكن ظاهرة اللاانتماء كانت واضحة ايضا فى البعض ، وتتجسد فى هؤلاء الامراء الخونة الذين خامروا على سلطانهم ، وتسببوا فى ضياع السلطنة المصرية التى كانت تحمى البحرين والحرمين ، وتحويل مصر التى تباهى بملكها الملوك الى مجرد ولاية تابعة للسلطنة العثمانية وكان خاير بك أشهر خونة ذلك الزمان .

***

كان خاير بك جركسيا اباظى الجنس (١) . وكان ابوه اسمه ملباى الجركسى ، قدمه مع اخوته الاربعة الى السلطان قايتباى ، وهكذا اصبحوا من مماليكه ، اقام

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٢٠٤ ـ ص ٤٨٣ الجزء الخامس

خاير بك بالقلعة ثم اخرج له السلطان خيلا وقماشا وعمار من جملة المماليك الجمــــدارية ثم بقى خاصكيا دوادار سكين ، ثم بقى أمير عشرة فى سنة احدى وتسعمائة فى دولة الملك الناصر بن الاشرف قــايتباى ، ثم بقى أمير طبلخاناه في دولة الملك النـــاصر محمد بن قايتباى . وأرسله فى مهمـــة الى الخوندكار أبى يزيد بن عثمـــان السلطان العثمانى عام ثلاثة وتسعمائة « ومن المحتــمل ان يكون قد بدأ صلاته السرية بالعثمانيين خــلال هــذه الزيارة » . استمر خاير بك فى الترقى حتى أصبح حاجب الحجاب في بداية سلطنة الغورى ، ثم عين سنة عشر وتسعمائة نائبا ، وحتى هزيمة السلطان الغورى فى مرج دابق لا نسمع اخبارا عن خاير بك ، ولا تطالعنا مواقف بارزة له ، ولا نجد اسمه فى بدائع الزهور الا عند ذكر ارباب الوظائف بالدولة ، ولكن خاير بك يطفو على سطح التاريخ من قاع الخيانة ، لقد مرت حياته حتى مرج دابق بمرحلة ، وتبدأ المرحلة الثــانية بانضـــمامه الى السلطان سليم حتى دخوله القاهرة . أما المرحلة الثالثة فتبدأ منذ تعيينه نائبا للسلطنة العثمانية بمصر وتنتهى بموته . .

***

انضم خاير بك اثر الهزيمة مباشرة الى السلطان سليم العثمانى ، يقول ابن اياس :

« وممن كان موالسا على السلطان فى الباطن وهو خاير بك نائب حلب ، فانه أول من كسر عسكر السلطان هو ، وهرب من ميسرة السلطان حتى انكسر فتوجه الى

حماة ، فلما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه وأخلع عليه وصار من جملة امرائه ، ولبس زى التراكمة العمامة المدورة والدلامة وقصص ذقنه ، وسماه ابن عثمان خاين بك ، كون انه خان سلطانه وأطاع ابن عثمان فسماه بذلك ، فلما جرى ذلك تسحبت مماليك خاير بك نائب حلب وتوجهوا صحبة العسكر الى مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان ، وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المستعصم بالله وملك هولاكو ملك التتار مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم فصار ابن العلقمى من المقربين الى هولاكو ، ثم أقلب عليه وقتله ، وصلبه ، وقال له ، انت ما كان فى وجهك خير لاستاذك يكون فى وجهك خير لى .. وربما يقع لخاير بك نائب حلب مثل ذلك » .

يتضح من سطور ابن اياس احتقاره لخاير بك ، والحقيقة ان الخائن كان يدخل مرحلة جديدة فى حياته، لقد رفض مماليكه ان يتبعوه ، ومضى هو الى صفوف السلطان العثمانى مع خونة آخرين أمثال الخواجا ابراهيم السمرقندى والخواجا يونس العادلى والعجمى الشنقشى ، وتبدأ العلاقة المعقدة بين الانسان الذى باع نفسه والسلطان الذى اشتراه ، انه بيع من نوع خاص، فبيع البشر كان أمرا عاديا فى ذلك الزمان ، ولكن هذا البيع الارادى له اسم واحد على مر العصور كلها ، مهما اختلف الزمان ، انه الخيانة بعينها ، وهنا لا ينظر السلطان العثمانى باحترام الى الخائن ، انما يحتقره ويحذر جانبه ، ويسميه خاين بك ، وينتشر الاسم ليصبح

على السنة الناس كلهم في مصر ، وربما كانت حكايات الناس المتداولة نسبت الى السلطان سليم تسميته لخاير بخاين بك ، ولكن لا شك أن تصرفات السلطان تجاه خاير بك تكشف مدى احتقاره له ، وهنا يجد الخائن نفسه مضطرا الى ابداء ولاء زائد تجاه السلطان الذى باع نفسه له ، بعد ان انضم خاير بك الى العثمانيين يحدثنا « ابن زنبل الرمال » فى كتابه « وقعة السلطان الغورى مع السلطان سليم » عن علاقة خاير بك بالسلطان العثمانى ، وكيف انه أشار عليه بذبح الكثير من المماليك الذين وقعوا فى الاسر ، ويقول ابن زنبل الرمال ..

« وكان السلطان سليم ليس له اقدام على قتل النفس » (١) .

ان الخائن يصبح مبالغا فى العداء لقومه ، يود ابادتهم كلهم وكأنه يريد اطفاء العيون التى تتطلع اليه باحتقار ، ويلح الخائن على السلطان سليم فى ضرورة التوجه الى مصر ، يقول ابن زنبل الرمال ..

« فقال له السلطان سليم ، وانى لى بأخذ مصر ، وجميع العسكر اجتمعوا بها ، وقد أخذوا أهبتهم ، وسلطنوا عليهم طومان باى ، وهو مشهور عندهم بالشجاعة والفروسية ولابد لهم من أمر يريدونه ، ونخشى التجوين فى بلادهم وبعد المسافة بيننا وبين بلادنا ، فقال خاير بك : ان العسكر الذين رجعوا من بعد الكسرة وانقطعت قلوبهم ، لا سيما والخلف واقع بينهم ، فانهم جميعا

---

(١) ابن زنبل الرمال ص ٤٢

مختلفون ، وكل من الامراء والاعيان قصده هلاك الآخر ، فحيثما كان ذلك فلا تخش من شيء ، وانت منصور بنصر الله لك » .

ويذكر ابن زنبل ان السلطان سليم وبخ خاير بك كثيرا كلما واجه موقفا صعبا ، بل انه في بعض الاحيان هم بضرب عنقه ،خاصة بعد دخول القاهرة ، وهروب طومان باى وتجميعه للمصريين والعربان وتنظيمة المقاومة ضد الغزو العثمانى ، وعندما كان العثمانيون يمسكون بأمراء المماليك الهاربين ، كان خاير بك يستحث السلطان سليم فى قطع رقاب الذين كانوا يوما زملاءه ومن بنى جنسه ، وعندما يؤسر كرتباى الوالى يناقشه السلطان سليم ويعجب به ويقرر الابقاء على حياته ، لكن خاير بك يقول له « يا مولاى ، ان أبقيت عليه وجعلته وزيرا لا يبقى عليك هذا المعاند الباطل والكلب الجاهل ويفسد جميع عساكرك » ان اى نموذج ايجابى يصبح مصدر ازعاج شديد للخائن ويسعى بكل قوة للقضاء عليه ، ويتكرر نفس الموقف عند أسر طومان باى السلطان المملوكى الشجاع ، ان سليم العثمانى يعجب به ، ولكن خاير بك يحرضه بكل الوسائل على قتله ، حتى يتم شنقه على باب زويلة ، ان الخائن يبتذل كل ما تبقى من انسانيته شيئا فشيئا فى سبيل ارضاء سيده الجديد، وقبل أن يغادر السلطان سليم مصر يقرر تعيين خاير بك نائبا له بمصر ، ويلقب خاير بك بملك الامراء ، ولكن أى امراء ، فقد صعد الى القلعة التى كانت مقرا لحكم السلاطين .

في يوم الاحد السادس والعشرين من شهر شعبان سنة ٩٣٣ هـ ، طلع الخائن الى القلعة ، وبعد يومين فقط ثار عليه جماعة من جنود الانكشارية العثمانيين .

« وقالوا له : رتب لنا جامكية كما كانت تأخذ المماليك الجراكسة ، فقال لهم : حتى أرسل أطالع أستاذكم بذلك (١) .

ان الخائن يجد نفسه في حاجة الى الرجوع في كل كبيرة وصغيرة الى سيده ، كل يوم يمر عليه في السلطة يتزايد احتقار العثمانيين له ، فقد طالبوه مرة أخرى بأن يرتب لهم ارزاقا من اللحم كما كان السلطان يرتب للمماليك من قبل .

« وأغلظوا عليه في القول ، فقال لهم : أنا سلطان حتى افرق عليكم الاقطاعات ارسلوا قولوا لاستاذكم يفرق عليكم الاقطاعات ويجعل لكم الجوامك واللحوم والعليق ، فلما سمعوا ذلك سبوه سبا قبيحا وهموا بقتله » (٢) .

ان الخائن يواجه حقيقة نفسه فيقول لجنود سيده « أنا سلطان حتى افرق عليكم الاقطاعات ؟ » . ولكنه يحاول التشبه بالسلاطين فيعقد مجلسا لقراءة صحيح البخاري وفي نهايته يوزع الخلع والهدايا على العلماء ، ولكن الحفل هزيل ، ان ابن اياس يعلق على ذلك قائلا :

« وشتان بين هذا الختم وما كان يعمل في ختم السلاطين الماضية في مثل هذا اليوم » (٣) .

---

(١) بدائع الزهور ـ الجزء الخامس ص ٢١٠ .
(٢) بدائع الزهور ـ الجزء الخامس ص ٢١٣ .
(٣) بدائع الزهور ـ الجزء الخامس ص ٢١٥ .

ومرة اخرى يقول ابن اياس معلقـــــا عندما خطف العثمانيون الاكل الذى كان محمولا الى الخائن عندما خرج للنزهة :

« ولم يكن لخاير بك عند العثمانية حرمة ولا وقار ، ولا مراعاة له فى سائر الاحوال » (١) .

كان الخائن يحاول التشبه بأسياده القدامى ، سلاطين المماليك .

ولكن الخيانة تخفض قيمة اى فعــل ، بالاضافة الى الظروف ، عندما يحتفل بالمولد النبوى فى الحادى عشر من ربيع الاول سنة ٩٣٤ هـ . ويقول ابن اياس :

« فصنع له ملك الامراء مولدا لم يشعر به أحد من الناس ، فقيل حضر عنده عشر جوق من القراء والوعاظ وبعض فقهاء ، فرسم لــكل جوقة من هؤلاء باشرفين فضجوا من ذلك ، وقالوا : نحن كان يدخل علينا فى مولد السلاطين لكل واحد منا مائة شقة ، فكيف نأخذ فى مولد ملك الامراء أشرفين . فرسم لكل جوقة بأربعة أشرفية لا غير ، وقيل ان ملك الامراء أخلع على الوعاظ فى ذلك اليوم كوامل بسمور ثم استردهم منهم بعــد ذلك واعطاهم مبلغا يسيرا ، ثم بعد العصر مد سماطا فى المقعد الذى بالحوش ، ليس بكبير أمر ، تخاطفته العثمانية على لمح البصر وبات غالب الننتهاء ، بلا عشاء ، وأين الحسام من المنجلى ، بالنسبة لما كان يعمل فى مولد السلاطين الماضية من الاسمطة الحافلة والشقق الحرير التى كانت تدخل على جوق القراء ، والوعاظ ، ولا سيما

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس ـ ص ٢١٦

ما كان يعمل فى موالد السلطان الفورى ، فكان يصرف على سماط المولد فوق الالف دينار . وكان يحضر عنده فى تلك الخيمة المعظمة التى لم بقى يسمح الزمان بمثلها ابدا ، القضاة الاربعة ومن الامراء المقدمين أربعة وعشرون أميرا مقدم الف ، غير بقية الامراء والعسكر .

باستمرار يحاول خلق الهيبة لنفسه ، ويتشبه بسلوك السلاطين ، فينزل من القلعة فى مواكب يحاول أن يضفى عليها الابهة ، ولكنها كانت تفتقر الى ذلك ماديا ومعنويا؛ فالفخامة ولت ، وفى وصف ابن اياس لمواكب الخائن ونزوله نلمح فتورا ، بل واحتقارا ، ولا يذكر ابن اياس ان الناس قابلت الخائن بالترحيب أو التهليل كما كان يحدث أيام السلاطين المماليك ، لقد كان الشعب المصرى يحتقر الخائن احتقارا كبيرا ، فلا يذكر أسمه الا بخاين بك .

كان احتقار الشعب له نتيجة عدة عوامل ، أولها الخيانة الفادحة التى راحت ضحيتها مصر ، أما العامل الثانى فعجزه عن رد حقوق الناس اليهم ، لا تقرأ انه رد بضاعة مسروقة الى صاحبها ، أو أنصف مظلوما ، بل ان الخائن كان يمارس الظلم بوضاعة ، لقد احتكر التجارة فى خيار الشنبر ، وحدث ان ذخل أحد الفلاحين الى حقل وقطع بعض العيدان من خيار الشنبر ووضعهم فى قفة ، فقبض عليه الخولى وأتى به الى الوالى ، فعرضه الوالى على الخائن خاين بك ، وهنا يأمر بشنق الرجل .

« وراح الرجل ظلما على بعض عيدان خيار الشنبر

ما يسووا أربعة أنصاف ، فتأسف عليه الناس كيف راح ظلما على شيء ما يستحق هذا كله وكان له أولاد وأم وزوجة ، وكان ملك الامراء خاير بك يبات يسكر بطول الليل ويصبح فى خبال السكر يحكم بما يقتضيه عقله . ولم يظهر العدل فى محاكماته قط منذ ولى عهد مصر » (١) .

ثم يطالعنا ابن اياس بحادثة اخرى :

« وفي يوم السبت سادس عشر رسم ملك الامراء بشنق شخص عجمى فشنق على باب زويلة ، وكان هذا التاجر فى سعة من المال ، فلما حضر من بلاد الشرق ومعه متجر بمال له جرم ، فطمع ملك الامراء فى ماله ، وزعم انه جاسوس من عند شاه اسماعيل الصوفى حضر ليكشف عن أخبار مصر وأحوالها ويطالع الصوفى بذلك فشنقه ظلما واحتاط على جميع أمواله » (٢) .

من ناحية أخرى كان الخائن يبالغ فى اظهار مشاعره وردود فعله تجاه ما يلحق العثمانيين من أذى .

« ومن الحوادث فى يوم وفاء النيل ان شخصا من العثمانية غرق فى البحر ، وتنكد ملك الامراء فى ذلك » (٣) .

وفى خان الخليلى كان أحد العثمانية يسير عندما قبض على أحد العوام وزعم أنه سرق من جيبه مبلغا تافها لا يتجاوز القرشين ، فلما قبض عليه :

« طلع به الى ملك الامراء ، فلما أوقفه بين يديه وقص

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس - ص ٢٥٤
(٢) بدائع الزهور . الجزء الخامس - ص ٢٦٢
(٣) بدائع الزهور . الجزء الخامس - ص ٢٦٩

عليه قصته وما فعله به فى خان الخليلى ، وانه قبض على يده وهى فى جيبه واخذ من جيبه وهو ماش أربعة انصاف ، فلما سمع ملك الامراء ذلك رسم للوالى بأن يقطع يده ، فقطع يده وعلقها فى رقبته وأشهره فى القاهرة فتأسف الناس عليه كيف قطعت يده على أربعة انصاف وقد راح ظلما ، وقد تقدم لملك الامراء انه شنق شخصا على عيدان خيار شنبر سرقها من جنينة فى زقاق الكحل ، فشنقه ظلما وراح ظلما على عيدان خيار شنبر وكان ملك الامراء يصبح زهو مخمور فيحكم بين الناس بالعسف والظلم ما لا يسوغ الشرع فى محاكماته وكان الغالب عليه الجهل وقلة الدين فى افعاله كلها » (١) .

كما ان كثيرا من أفعال الخائن كانت تافهة تلقى استهزاء المصريين وسخريتهم ..

« وفى ذلك اليوم المذكور ، أحضر ملك الامراء خاير بك فى الحوش كباشا يتناطحون قدامه ، وكان قبل ذلك نادى خاير بك فى القاهرة : كل من كان عنده كبش نطاح يطلع به الى القلعة يناطح بين يدى ملك الامراء فاستخف الناس عقل خاير بك على ذلك .. » (٢) .

وفى جمادى الآخرة سنة ٩٢٥ هـ .

« أشيع ان ملك الامراء خاير بك قد ضرب زوجته خوند مصرباى الجركسية ضربا مبرحا حتى كادت أن

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس ــ ص ٢٧٤
(٢) بدائع الزهور . الجزء الخامس ص ٢٢٧

تموت ، ولم يعلم ما سبب ذلك ، وكثر فى ذلك القيل والقال » (١) .

وفى ذى القعدة سنة ٩٢٦ هـ يورد ابن اياس حادثة طريفة تعكس ما وصل آليه الحال ..

« وفيه أشيع ان صبيانا صغارا قعدوا يلعبون فى بعض الحارات ، فعمل واحد منهم ملك الأمراء وآخر والى القاهرة ، ونادرا ان أحدا لا يخرج من بعد العشاء، فقام أحد الصغار وخطف عمامة آخر يعبث عليه فقبضوا عليه وأحضروه بين يدى الذى جعلوه ملك الامراء فرسم للذى أقاموه واليا بأن يقبض عليه ويخوزقه فدقوا له عصا فى الارض ، واقعدوه عليه غصبا ومنهم من قال ان الصبى مات من وقته ومنهم من يقول انه لم يمت ، فلما جرى ذلك تهاربت الصغار الى حال سبيلهم ، وقد هان القتل فى هذه الايام حتى عند الصغار .. » (٢) .

ولكن النهاية لم تكن سهلة ، وتلك ظاهرة نلاحظها فى اشهر خونة ذلك الزمان ، فجان بردى الغزالى الامير المملوكى الذى خان طومان باى وأعطاه السلطان العثمانى نيابة الشام ، نجده يتمرد بعد فترة قليلة من توليه منصبه الجديد ، ويدفعه طمعه الى الاستقلال بالشام وتقطع راسه فى نهاية حركته ، أما خاير بك فقد كان مخلصا فى خيانته فلم يفكر فى الاستقلال بمصر أبدا ، بل انه قطع رأس احد المواطنين كان قد جرؤ وردد اشاعة تقول بنية الخائن فى الاستقلال بمصر ، أما الخائن الثالث

(١) بدائع الزهور . الجزء الخامس ـ ص ٣٠٢
(٢) بدائع الزهور . الجزء الخامس ـ ص ٣٥٩

شيخ العرب حسن ابن مرعى فقد قطعت رأسه أيضا في عهد الخائن ، وقيل ان المماليك الجراكسة شربوا من دمه وقطعوا لحمه جزلا بالسيوف ، وكان ابن مرعى قد خان طومانباى وسلمه الى العثمانيين بعد ان اختبأ عنده .

لقد بدأ مرض الخائن فى ذى القعدة سنة ٩٢٨ هـ ، ولزم الفراش على الفور ، تزايد به المرض ، انقطع عن المحاكمات ، قيل انه وقع فريسة لثلاثة أمراض جاءته مجتمعة وكما يصفها ابن اياس . « منها فرخة محمرة طلعت له في مشعره ، وانحدار انصب له فى أعضائه ، وهو من أنواع الفالج وكتم البول ، وحار الاطباء فى علاجه » .

وعندما تزايد المرض ، يلجأ الخائن الى ما يظن انه سيهدىء نفسه : فنجده يتصدق على جميع أطفال الكتاتيب بالقاهرة ، لكل صغير منهم بنصف فضة ،كانوا يقولون لهم ، اقرأوا الفاتحة وادعوا لملك الامراء بالعافية، حتى فى تلمسه أسباب الراحة النفسية يلجأ الى المال ليشترى به الدعاء ، لا عجب ، فان لكل شيء ثمنا عند الخائن .

فى يوم الخميس الحادى عشر من الشهر أشيع بين الناس انه عجز عن القيام ، شل تماما ، فلما تزايد به الامر ، اعتق جميع جواريه ومماليكه ، وأفرج عمن كان سجنهم ظلما ، انه يدفع ثمنا أغلى ليشترى الراحة .
« ثم انه دفع للقاضى بركات بن موسى ألف دينار فضة، ورسم باخراج عشرة آلاف أردب قمح من الشونة ،

ورسم للمحتسب بأن يفرق ذلك على المجاورين بالأزهر، والمزارات والزوايا التى بالقرافتين قاطبة .

ويعلق ابن اياس على ذلك قائلا :

« ولم يروا الناس فى أيام ملك الامراء خاير بك أحسن من هذه الايام ، فانه جاد على النـــــاس وبر الفقراء والمساكين ، ولم يعرف الله الا وهو تحت الحمل ، فلم يفده من ذلك كله شىء ، ويأبى الله الا ما أراد .. » .

وعندما قوى عليــه النزع ، راح يهذى قــائلا : أين المال ؟ أين الملك ؟ . وصار يصعق حتى خاف منه من كان حوله .

« وقد فتنته الدنيا كما فتنت من قبله ، فكان كما يقال فى المعنى ..

« قد نادت الدنيـــا على نفسـها
لو كان فى العـــالم من يسمع
كم واثق بالعمر خيبتـــــــــه
وجامع بددت ما يجمـــــــع »

فى يوم الاحد الرابع عشر من ذى القعدة قبضت روح الخائن ، ويعــدد ابن اياس مساوئه التى لا تحصى ، ويقول انه كان جبارا ، عنيدا ، سفاكا للدماء ، قتل فى مدة ولايته على مصر ما لا يحصى من الخلايق ،واخترع طريقة جديدة فى القتل عن طريق ادخال الخازوق فى الاضلاع وكان يسميها « شك الباذنجان » ، واتلف نقود الديار المصرية ، وعزل القضاء الاربعة ، وزادت كراهيته لرجال العلم والفقهاء ، أما أعظم مساوئه ، فانه كان سببا فى خراب مصر ، لقــد حسن لسليم شاه اخذ مصر ،

وضمن له أخـــذها ، وعرفه كيف بصنع . كان كثير الحيل . والخداع والمكر . لا يعرف له حال .

دفن الخائن فى تربته التى بناها قرب باب الوزير علي طريق القلعة ، يقول ابن زنبل الرمال :

« يمر عليهـــا الباشات والصناجق والاغوات عند ذهابهم وايابهم ، فلم يلتفت اليه منهم أحد ، ولا يترحم عليه ولا يقرأ له الفاتحة ، مع أنها تربة مليحة المنظر ، ومع ذلك صد الله عنه قلوب الخلق لانه كان سببا فى هلاك ألوف مؤلفـــة من الجراكسة والاروام والعرب وغيرهم .. » .

وبين الناس وعامة شعب مصر كانت الاقاويل تتردد عن الخائن حتى بعد موته ، يقول ابن زنبل الرمال :

« وكانت الناس تسمع صراخه فى القبر وهو يصيح حتى ضجت الناس من ذلك » .

وكان موته عبرة لمن اعتبر ، وهكذا حال الدنيا تفعل بأهلها ، فهنيئا لمن أعرض عنها وقنع منها باليسير ، وترك الكثير عن باله فيالها من دنيا .

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٤٢٩٥ ــ ١٩٨٣

الترقيم الدولى : ٥ ــ ٠٤٩ ــ ١١٨ ــ ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيونى زغلول ـ الكويت ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

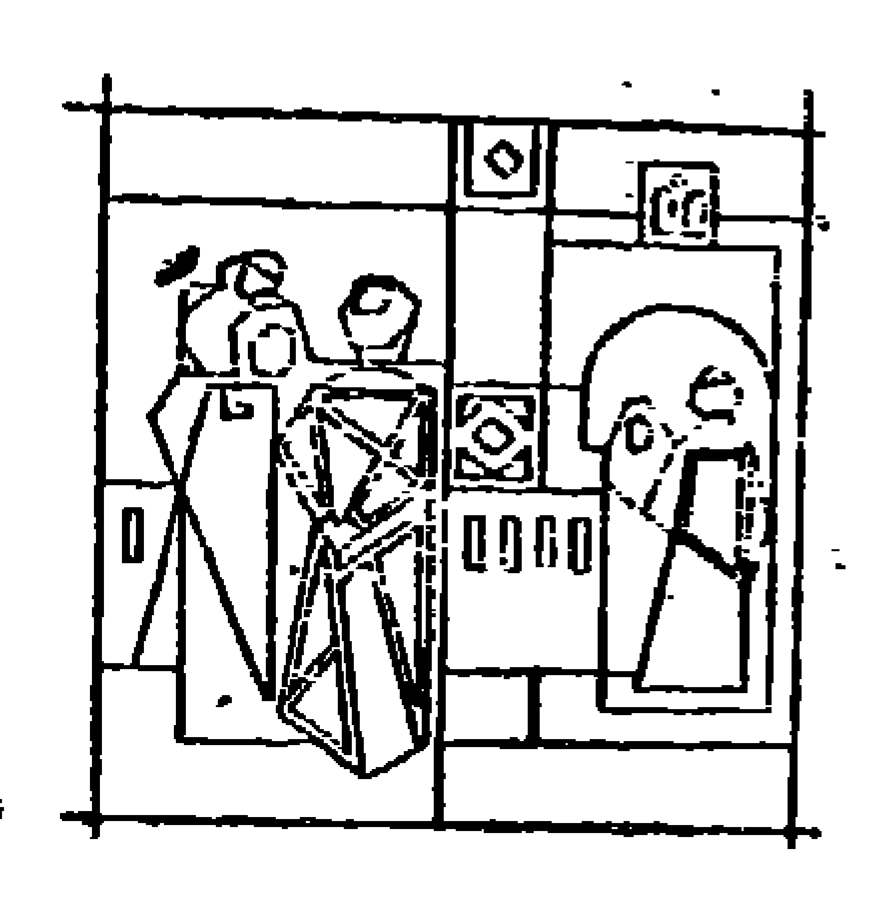
جدة ـ ص ـ ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : R. Miguel Maccul Cury. B. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٣٥٠ مليما :

سوريا ٧٠٠ ق . س ، لبنان ٧٠٠ق . ل ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٩٠٠ فلس ، العراق ١٠٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريال ، السودان ٧٠٠ مليم ، تونس ١٠٠٠ مليم ، المغرب ١٠٠٠ فرنك ، الجزائر ١٠٠٠ سنتيم ، الخليج ٤٥٠ فلسا ، غزة والضفة ١٥٠ ليرة ، داكار ٤٠٠ فرنك ، لاجوس ٦٠ بنى ، أسمرة ٥٠٠ سنت ، اليمن الشمالية ٥٠ بنى ، الصومال ٥٠ بنى ، أديس أبابا ٥٠٠ سنت ،باريس ٨ فرنكات ، لندن ٨٠ بنس ، ايطاليا ١٢٠٠ ليرة ، سويسرا ٣٫٥ فرنكات ، أثينا ٨٠ دراخمه ، فينا ٣٥ شلن ، فرانكفورت ٣٫٥ مارك ،كوبنهاجن ١٠ كرونات ، استوكهولم ١٤ كرونه ، كندا ٢٥٠ سنتا ، البرازيل ٣٥٠ كروزيرو ، لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، استراليا ٣٠٠سنت ، هولندا ٤ فلورين ، نيويورك ٢٥٠ سنتا .



هذا الكتاب

كتاب فريد في مضمونه ، رحلةفي تاريخ القـــاهرة ، في زمنهـــا ومكانها ، رحلة تستعيد التاريخ ولاتعيده ، من خلالها تتجسد رؤية فنية تقف عنـد ناصيتي الواقع والفن ،تنـاول الآثار المدينة ، وشخصياتها وعادات شعبها القاهري ، ولـيـالي زمنها المملوكي • مقاهيها القديمة التي اندثرت والتي لا تزال تصارع الفناء ، أسواقها العتيقة ، بيوتها الاثرية التي افلتت من البلي ووصلت الى زماننا ، دروبها ، حواريهـا ، معـــاناة أهلها في عصـور الظلم والقهر ، أزياء القاهريين في الزمن المملوكي ، الحاكم بأمر الله ومـــاتبقى منه ، خاين بك الذي سلم مصر كلها للعثمانيين ، وغيرهما •• من سلاطين ، ومشايخ ، وصـــناع وأهل السبيل ••

يقوم بهـــذه الرحـلة الروائي المعروف جمال الغيطاني ، وهــو عاشق للقاهرة القديمة التي عـاش فيها جل عمره ، عرف ماضيها من خلال معايشة يومية ، واحســاس مرهف بالتاريخ ، ورؤية فنان حقيقي لمرور الدهـــر بالبشر والمبـــاني والامصار • في الكتاب تناول جديد لموضوعات قاهرية شتى • يجمع بين الدقة التاريخية ، والحقيقة المجردة، وسرد الروائي المتمـكن ، والرؤية الفريدة لما انقضى وكان ، رؤية الفنان التي تمسك بمـا يتوارى في كتب المؤرخين ، وترى ما لا يراه غيرها وتستشعر نبض الزمن الداخـــلي الذي لا تدركه الا روح حساسة ، انه محاولة لصون بعض ملامح الدهر القاهري •

٢٥ قـــرشـــا